
محمود الجعيدي
هيراطيقية !!
رواية

اسم الكتاب : هيراطيقية
اسم المؤلف : محمود الجعيدي
رقم الإيداع : ٢٠١٥/٢٧٠٥٧
الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-٠٤٩-٠٩

دار غراب للنشر والتوزيع
القاهرة — مدينة نصر
٨ عمارات الواحة – قطعة ١٠ – جامع السلام
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

خلقتني يا ربّ ماء وطين

وصغتني ما شئت عزّا وهون

فما احتيالي والذي قد جرى

كتبته يا ربّ فوق الجبين

(رباعيات الخيام)

مقدمة

قمر نصف مُعتم، نجوم لا تتلاقى، ومبنى ضخم تسكُنُه نيران يُسمع لها شهيق وزفير وهي تُخرِجُ ألسنتها الملونة في وجه السماء، حين كنتُ أقتربُ من المشهد الأخير في حياتي.. كل شيء بات مثاليًا ومُعدًّا بعناية لتلك النهاية، التي أعلمُ الآن أنني كنتُ أقتربُ منها بإرادتي..

كل خطوة خطوتُها، كل نَفَسٍ أخذته، كل مضاجعة، وكل جريمة قتل ارتكبتُها كانت تقربني من تلك اللحظة ومن مصيري.. لقد اخترتُ كلَّ هذا، ولا معنى الآن لعبثية الوجود وحتمية الموت، حتى المنطق بات بالنسبة لي وهمًا يُناطح وهمًا..

ستكون نهايتي وسط المكان الذي راحت جدرانه تتداعى من حولي بفعل النيران، التي أحاطت بي من كل جانب دون أن تمنحني الدفء الذي أتمناه، بينما برودة الموت تتسلل أسفل جلدي كدبيب النمل، تزفُّها دمائي التي تتدفق من جراح جسدي.. وكل شيء - حتى الظلام الذي غشيَ روحي - سيأتي معي مباشرة إلى الجحيم..

حقيقة لم يعد من المهم أن أبقى على قيد الحياة أكثر من ذلك.. أليس الموت هو تجربتنا الأخيرة بعد أن نكون قد انتهينا من كل تجارب الحياة؟!

مُرتجفًا أرفع يـدي وأرى الثعبـان الأسـود الموشـوم عليهـا يتبخـر تدريجيًّا.. يُقال: «عند الموت تتضح الأشياء كلهـا».. صرت أعلـم الآن صِحَّة ذلك.. أيها النور ربما حان الوقـت لأن تـنهض أخـيرًا؛ فأنـا الآن سأنام.. إلى الأبد.

* * *

قبل ذلك..

لا أذكر تحديدًا متى بدأ الظلام يغزوني، ولا متى كانت البداية.. كل شيء أضحى يدور من حولي في دائرة مفرغة الخروج منها صار مستحيلًا، بينما أفكاري تدور داخل دوامة من الخوف والندم..

كعادتي منذ انتقلتُ أنا وأسرتي إلى تلك المدينة النائية التي تقع على أطراف الإسكندرية، كنتُ أتجولُ في شوارعها شبه الخالية من المارة متأمّلًا ما حولي بهدوء، محاولًا تنشيط قريحتي التي جفت الأفكار بها، وصارت أشبة بصحراء جرداء.. تحديدًا أحبُّ أن أسير ليلًا حيث الظلام الذي يضفي رونقًا مختلفًا على كل الأشياء.

كانت آخر رواية انتهيتُ من كتابتها منذ نحو ثلاثة أعوام.. الآن أنا أكتبُ طلبًا للرزق وليس كهاوٍ.. هناك مقال صغير تم نشره عني منذ ثلاث سنوات في مجلة أدبية ألمحت إلى كوني مشروع كاتب يُبشّرُ بالخير مع عرض مختصر جدًّا لملخص أعمالي.. المشكلة أن اسمي كُتِبَ بطريقة

خاطئة، وبدلًا من فتحي كُتِبَ فتوح.. من حسن الحظ أن لا أحد يقرأ أو يشتري تلك المجلات الفاشلة..

٣٧ عامًا هي جميع سنوات عمري التي قضيتها في الحياة حتى الآن.. بالرغم من ذلك ما زلت طفلًا صغيرًا، زوجتي (نادية) تصغرني بخمسة أعوام، تعمل مدرسة للغة انجليزية..عملها كان السبب في انتقالنا إلى هنا للاستفادة من بدل المناطق النائية.. ما أحصل عليه لا يكفي لبقائنا أحياء، ولذلك صار مرتبها هو العمود الفقاري الذي تستند عليه معيشتنا.. صحيح أنها تقوم بها تقوم به أي زوجة مصرية أصيلة، وهو ممارسة النكد باحتراف شديد، لكنها تظل سيدة رائعة يمكن الاعتماد عليها، وهذا يغفر لها الكثير.. وليس كل شيء طبعًا،

لدي أيضًا ابنة جميلة تحمل عيني والدتها الواسعتين، واستدارة وجهي، وجنون بونش بوب.. أطلقتُ عليها (أمينة) لكي أكون صادقًا أكثر، كان هذا هو اسم والدة نادية، والتي قررت أن ابنتها الأولى لا بد أن تحمل اسم والدتها العظيمة.. ألم أقل إن مسالة الاعتماد عليها تغفر لها الكثير؟! حسنًا، كانت هذه هي إحدى المرات..

بالنسبة لي لا أفكر كثيرًا في الغد.. تعلمتُ من أخطاء أبي الذي عاش مهمومًا ومات كذلك أيضًا.. كان دائمًا يفكر في المستقبل.. متى سيقبض راتبه؟ كيف سيصرفه؟ متى سيمرض؟ وما حجم مدخراته الذي يحتاجه لعلاجه؟ للأسف نسيَ أن يفكر متى سيموت، وأنه من الأفضل أن يظفر بحياته بدلًا من أن يقضيها في حمل الهموم.

رحتُ أدندن بلحن أغنية سخيفة، لا أعرف لماذا التصقت بأذني أو متى سمعتها، حين لمحتُ عصام يشير إليَّ من مكانه المنعزل، على طرف قهوة بلدي أكل السوسُ زياتها قبل أن يأكل مقاعدها:

- فتحي.. فتحي.. تعالَ.

لم يكن عصام سوى جاري الوحيد، والذي يسكن في المنزل المقابل لمنزلي.. كنتُ أحتاجُ إلى قليل من تجاذب أطراف الحديث مع شخصية بشرية حتى وإن كانت في بلاهة عصام.. لا أعلمُ عنه الكثير سوى أنه دائم الشّجار مع زوجته، عصبي إلى حد ما، ويحبُّ أن يقف في شرفة منزله مرتديًا ملابس داخلية ملونة من ماركة مشهورة.. أخبرني ذات مرة أنه يعمل بالسياحة.. لم يقل بالتحديد طبيعة عمله.. سائح مثلًا..

كان نحيلًا إلى حدٍّ ما، مدبب الذقن، أبيض البشرة، يصفّفُ شعرة البني إسبايكي، ناسيًا سنوات عمره التي اقتربت من الأربعين، كما أنه قصير القامة، ذلك القِصَرُ الذي لا يدعو إلى الاحترام، مما يجعله يلعن كل مَنْ يعرفه ولا يعرفه بدون أسباب.. لا بدَّ في يوم ما أن يذهب لطبيب نفسي.. أنا لم أعد قادرًا على تحمُّلِ هراء بؤسه أكثر من ذلك.

صافحتُه وأنا أحصي أعقاب السجائر التي أمامه، لاحظ ذلك، فأغمد العقب الذي بين أصابعه مغمغمًا:

- تاني علبة وحياتك.. الله يلعن أبو اللي خلاني أشربها

- بس كدا كتير قوي على صحتك.. ارحم نفسك يا نجم.

- والدي عاش لغاية الثمانين.. قضى منهم ٦٥ بيدخن وصحته كانت زي الفل.. ومات في النهاية في حادثة عربية.

- والعربية عاملة إيه؟

- عربية إيه؟

- اللي الحاج والدك أتنيل ومات فيها؟

أطلق ضحكة لا بهجة فيها:

- لا.. تمام حلوة وزي الفل.. عقبال لما تركبها.

- لا يا عم.. أنا لسة صغير.. إتفضل أنت وأنا أحصلك بعدين، كمان خمسين، قول سبعين سنة.. تكون أنت اتشويت واتقليت في النار على مهلك.

- طبعًا مزاجك عال.. أنت ومراتك زى السمن على العسل.

- قل أعوذ برب الفلق.. كانت وردة وفتحت.

ورفعت أصابعي الخمس في وجهه.. أشاح بيده قائلًا بضيق:

- يا عم هحسدك عليه.. اتنوا شوية وهتشحتوا.

- احترم نفسك.. إحنا مستحيل نشحت.. إحنا هتسول بس.

ثم صمتُّ للحظة قبل أن أستطرد، وأنا أفرك يدي في كوب الشاي الساخن الذي وضعه أمامي صبي القهوة المصاب بفقر دموي، وربما بالتهاب فيرس سي:

– وعيالك إزايهم؟

– كويسين.. والله هما اللي مصبرني عليها.

– بس لو تسمع كلامي وتأخدهم مع مدام (شفاء) وتقضوا لكوا كام يوم في إسكندرية.. صدقني هتفرق معاكوا كتير.

عبس وجهه:

– دي بومة يا فتحي.. ملهاش في الدلع.. أهم حاجة عندها المصاري.. أقولك حاجة، إحنا لو روحنا إسكندرية، البحر هينشف.. خلينا هنا عشان خاطر مثر.

– مش للدرجة دي.. خلاص، أعزمها أنت.

– منين.. محسوبك اللي جاي على قد اللي رايح.

– وفر بس تمن السجاير والبلا الأزرق والأحمر اللي أنت عمال تبلبعه طول اليوم.

– أعمل إيه؟ ما أنا لو معملتش كدا، هتنيل أديها ضهري وأنام، ودي ولية لسنها ميبطلش كلام، وهتجرسني وسط الناس.. اسألني أنا.

- يا عم أبقى اطفي النور.

احتج وهو يشعل سيجارة جديدة قائلًا بلهجة طفولية:

- أنت بقى عاوزها تخنقني زي ريا وسكينة.. اسكت.. أصلك مشفتش الإيشارب الأحمر اللي بتلفه حوالين صلعتها.. وبعدين بلاش نجيب في سيرتها، دي بتيجي على السيرة.

زفرت بضيق:

- خلاص إتنيل موتها وخلصني.

- أنت إتضايقت يا فتحي.. أنا بفضفض معاك.

- لا إتضايقت ولا حاجة.. بص في شقة لواحد صاحبي ومعاه حتتين حجم عائلي.. تيجي معايا تغير زيت.

صفق بيده دون أن تتلامس كفّاه:

- حلاوتك يا معلم.. وراك يا قائد.

- خسئت يا واطي.. إنت صدقت.

- طول عمرك معفن.

وأشار إلى الصبي أن يأتيه بشيشة وحجر تفاح.. تابعت الصبي وهو يرص الحجر، فيما مسح عصام على المبسم بخبرة تمتد جذورها حتى سنوات مراهقته.. سحب نفسًا طويلًا منها حتى قرقرت أحجار

الشيشة وتلونت نارها، قبل أن ينفث دخانًا كثيفًا من فمه، ثم يسترخي في مقعده تاركًا الكربون المُطعَّم برائحة التفاح يُعبِّق المكان..

نظرتُ إلى ساعتي التي اقتربت من الثالثة صباحًا.. سألته:

- لسة هتسهر؟

- يعني.. حجرين كمان وأروح.

- طيب، هقوم أنا.. سلام.

- سلام.. بس وحياة بنتك أمينة لو طلعت حكاية الختتين الحجم العائلي بجد، تيجي تاخدني معاك.

- ربنا ياخدك يا شيخ.

قلت ذلك حين رن رقم هاتفه.. التقطه وهو يُقطِّبُ جبينه:

- البومة.. شفت.. مش قلت لك بتيجي على السيرة!

* * *

وصلت إلى المنزل مع الدقائق الأولى لطلوع الفجر.. من حسن الحظ أن أسعار المنازل في تلك المدينة كانت إلى حد ما معقولة؛ مما مكننا من شراء هذا المنزل، الذي كفل لنا راحة وخصوصية افتقدتها أنا وزوجتي عندما كنا نسكن مع والدتي.. المنزل كان يتألف من دورين، اضطررنا بسبب صغر حجمه أن نخصص الدور الأول للمطبخ ولغرفة الجلوس، فيما خصصنا الدور الثاني لغرف النوم وحمام صغير..

الأثاث كان متواضعًا وبسيطًا، وبالرغم من ذلك ما زلنا نجاهد من أجل تسديد باقي أقساطه.. لا يمكنني سوى الاعتراف بالذوق العالي لنادية.. كل قطعة أثاث وُضعت في ركن ما، وُضعت بعناية بالغة حتى لتظن أن تلك القطعة خُلقت من أجل ذاك الركن بالذات، ناهيك طبعًا عن حسن اختيارها لألوان الغرف ذات البياض الصافي المائل للاصفرار، والتي تذكرني بلون ناب الفيل العاجي.

كنا نسكن في منطقة على أطراف المدينة.. في الليل نستطيع أن نشاهد أنوار السيارات التي تعبر الطريق الصحراوي السريع ذهابًا أو إيابًا من ليبيا.. يومًا ما سوف أستقلُّ واحدة من تلك السيارات، وأذهبُ في رحلة بلا عودة.

جيراني يمكن عدهم على أصابع اليدين، لا أختلطُ بهم إلا فيما ندر، فبخلاف عصام لا أعرف منهم أحدًا..

يوجد على أول الشارع محل بقالة صغير صاحبه شيخ قعيد كره أن يبقى في المنزل لكيلا يغسل ملابس زوجته.. اعتدت أن أشتري منه الطلبات بالرغم من عدم جودة بضاعته، لكن يكفيني نظرة السعادة التي ترتسم على وجهه كلما ابتعت منه.

تسللت بهدوء على أطراف أصابعي متجنبًا إيقاظ نادية، وذلك بعد أن خلعت ملابسي في الصالة قبل أن أدخل غرفة النوم.. لو تمكن والدي المتوفَّى بطريقة كونية ما أن يشاهدني الآن لخرج من قبره قارئًا الفاتحة على الرجولة، ثم عاد إلى قبره وقد أُضيف هَمٌّ جديد إلى همومه..

اندسست بجوارها بهدوء أحسد عليه.. صوتُ أنفاسها غير منتظم.. هذه المرأة لديها قرون استشعار بلا ريب.. أنا متأكد أنها مستيقظة وتلعنني الآن في سِرّها.. على الأرجح تفضل إرجاء الشجار إلى النهار لتتمكن من أن تبدع في الصراخ والندم على ارتباطها بأحمق مثلي، أو ربما تفكر في طريقة مبتكرة لتعذيبي مثلًا.. أمنا (الغولة) تنام، ألا تنامين؟!

* * *

أصابع نحيلة تلمس رسغي، وقبله حانية على فمي استيقظت على إثرها في الصباح..

غريب.. لابد أنني متُّ حتى تفعل معي نادية ذلك.. المعتاد أنني أستيقظُ على صُراخها، أو صراخ ابنتي، أو صراخ شخص ما يعبر الشارع بلا سبب.

- إصحى يا حبيبي، الأكل سخن.

- بجد.. طيب بسرعة حطي له كمدات!

لم يبد على وجهها أي أثر للدعابة التي قلتُها، والتي هُرِست في مئات الأفلام العربيةّ..

لكزتني في جانبي وهي تنسحب من فوق الغطاء:

- لأ.. خفيف!

كانت تقف تلف جسدها بالمنشفة، والماء يقطر من جسدها على السجاد، بينما تحاول أن تجفف شعرها الغجري المجنون، الذي يسافر في كل الدنيا كما تغنَّى العندليب الأسمر..

جذبتها بجواري واعتليتها محدقًا في عينيها الخضراوين:

- مش أمينة في المدرسة دلوقتي برضو؟

ابتسمت ابتسامة كشفت عن صف من اللؤلؤ:

- أمينة راحت وجت يا أستاذ.. الساعة دلوقتي واحدة الضهر.

- وماله.. مش هعمل صوت.. silent.

رحت أطبع قبلاتي فوق جبهتها نزولًا إلى شفتيها المكتنزتين وحتى عنقها الشامخ.

صوت الهاتف جعلها تزيحني من فوقها.. تبحث عن السماعة:

- أكيد دي (شفاء).. إحنا متفقين نخرج سوا نشتري الحاجة.

أطلقتُ تنهيدة بائسة:

- لسه في وقت.. إنت عارفه إني سريع.

- يا حبيبي النهاردة عيد ميلادك.. ومن المفترض إن ده يوم مميز.

- وهو فيه تمييز أكتر من كدا؟!

لم تجب، بينما ردت على الهاتف، لأستمع بعد ذلك إلى حديث ممل يدور بينها وبين زوجة عصام مدام شفاء..

وضعت رأسي أسفل المخدة:

- يا رب ياكلكم تمساح، وبعدين يجي ديناصور يأكل التمساح اللي كلكم.

* * *

- بابا.. ممكن أعرف إيه أحسن شيء حصل في حياتك؟

قالتها أمينة، وهي تقفز على السرير، وتزيح الغطاء من فوقي.

- أوووف.. هوا أنا مش هعرف أنام؟! ارحموني.

وعدتُ أغوص تحت الغطاء ثانيةً.. تزيح مرة أخرى الغطاء في غلاسة تشابه غلاسة والدتها:

- قولي بس...

- يعني لو قلت هتحلي عن دماغي؟!

- أه.

- طيب أحلفي.

- اممممم.. وحياتك عندي.

- لا.. احلفي بحياة أمك.. عشان لو كذبتي.. أمك هي اللي تروح النار.

- وحياة ماما.. إخلص بقى يا عم.

هرشت رأسي مفكرًا وأنا أعتدل فوق السرير:

- اممم.. مش عارف.. يمكن لما الزمالك كسب الأهلي في نهائي سوبر إفريقيا من حوالي ٢٠ سنة بهدف العالمي (أيمن منصور).

- wow.. أول مره أعرف إن الزمالك كسب الأهلي

- أصلك لسه صغيرة.. هو بس أخر تلات.. أربع.. قولي آخر عشر سنين مكسبش الأهلي.. يعني قد عمرك بالضبط.

قاطعتنا نادية التي انتهت من ارتداء ملابسها:

- الأكل أنا سايباه لك على البوتاجاز.. لما تجوع.. إبقى سخنه.

وجذبت أمينة من يدها وقبل أن تغادر توقفت وكأنها تذكرت أمرًا ما:

- بالمناسبة إنت لسه مكلمتش صاحبك عصام عشان شفاء.. أنا كنت وعدتها.

- وحياتك عندي بقالي اكتر من أسبوع مشفتهوش.. أوعدك أول لما أشوفه هحكي معاه.

امتعضت قليلًا:

- امممم..

ثم أردفت بسرعة شديدة:

- على العموم أنا ماشية دلوقتي .. هقابل شفاء في الطريق.. عاوز حاج؟! طيب كويس.. سلام.

وغادرت دون أن تعطيني الفرصة لأرد عليها.. مقنعة بطريقة لا تُصدَّق.

* * *

انتظرتُ حتى غادرت..

أخيرًا أصبحتُ بمفردي.. أنا الآن الملك الوحيد والأوحد للمنزل.. لدى حماسة كبيرة لأن أكتبَ.. سوف أظلُّ أكتبُ لساعات طويلة، وحتى تصاب يدي بالخدر، لكن أولًا أنا جائع.. أحتاج إلى أن أملأ معدتي حتى أبدأ في انطلاقة لا تتوقف عن الكتابة.

في المطبخ كانت نادية قد تركت الطعام، فوق البوتاجاز العتيق، الذي تآكلت جوانبه من الصدأ، وانسدت عينان من عيونه الأربع.

طبق محشي ونصف فرخة محمرة أنهيت عليهما في دقائق، ثم تناولت سطل النسكافيه، واتجهت إلى الشرفة أتناوله على مهل، وبدأت الكتابة..

مضى الوقت سريعًا، لم يوقفني سوى مكالمة مقتضبة من نادية وتذكير سريع بأن آتي مبكرًا من أجل عيد الميلاد.

«لذا وبلا جمال وبدون حب حقيقي، وبعد أن عاقرا زجاجة خمر كبيرة تزوجا»

كانت الساعة قد تعدت السابعة مساء حين توقفتُ عن الكتابة، وقد أنهيتُ جزءًا لا باس به من روايتي الجديدة، ختمته بالفقرة السابقة.

انتظرت برهة من الوقت حتى بدا الظلام يحتشد، حين قررتُ أن أقوم بجولتي المسائية المعتادة داعيًا الله ألا ألتقي بعصام..

ارتديت ملابس كاجوال ثقيلة تناسب برودة تلك الليلة.. خبراء الطقس يقولون إن الشتاء الحالي هو الأسوأ الذي تتعرض له البلاد منذ ١٠٠ عام.. اللعنة.. لا بد أنكم تمزحون معي.. لم يكن هناك أرصاد جوية منذ ١٠٠ عام لكي تقارنوا.

* * *

قادتني قدماي نحو محطة السكة الحديدية القابعة على أطراف المدينة.. مكان خالٍ ومثاليٌّ لارتكاب أي جريمة بهدوء.. لا بد في يومٍ ما أن أصوغ هذا المكان في قصة..

اقتربت من قضبان القطار الحديدية التي راحت تهتزُّ مبشرةً باقتراب الثعبان الحديدي وعجلاته التي لا ترحم، حين لمحت فتاة

عادية، جمالها من النوع الذي لا يلفت انتباه أحد، نصفها الأسفل كان ممتلئًا قليلًا، ترسم تضاريسه نسمة الهواء التي راحت تحرك بلوزتها المصنوعة من الكتان..

نظراتها الشاخصة، أوحت لي بأن هناك صراعًا مريرًا يدور داخل عقلها..

اقترابها المتردد من القضبان وخطواتها التي تتحرك تارة للأمام وتارة للخلف، مع صفارة القطار ونوره الأصفر الذي يسطع وكأنه يعطي إشارة الاستعداد لمن يرغب في الانتحار بأن يستعد وأن الوقت قد حان.. تنوي الانتحار بلا ريب، ولئن كنت مخطئًا فليدهسني ذلك القطار بدلًا منها..

هل تركت رسالة تخبر فيها عن الأسباب؟! لا أعتقد ذلك.. في الغالب الرسالة يتركها من ينتحرون بالسم أو بالشنق.. أما من يحبون أن تفرمهم عجلات القطار فهم على الأرجح متعجلون أكثر من اللازم.. قصة جديدة يمكن أن أحكيها لزوجتي عند عودتي، لكن..

ليس اليوم.

هرعتُ نحو الفتاة التي توقفت بين القضبان.. لن أصرخ فيها.. قد يؤدي ذلك إلى أن تهرع نحو القطار لتُعجِّل من المصيبة..

انتزعتُها بقوة من مكانها.. القطار يمرُّ محدثًا صوتًا كقصف الرعد،

بينما الغبار يتطاير فوقنا وأنا أثبتها على الأرض وهي تصرخ بهستيريا إلى أن غاب القطار عن نظري بعدما ودعنا بصفارة عالية أخيرة..

جلستُ في مكاني ألهثُ محاولًا التقاط أنفاسي، بينما ابتلعت الفتاة صراخها داخل فمها، وتخشبت في مكانها كصنم تنظر في الفراغ البعيد..

أخرجتُ علبة سجائري التي أُخفيها عن زوجتي داخل محفظتي..

أحصيتُ ما فيها بنظرة سريعة.. فقط ثلاث سجائر.. أشعلتُ إحداها مراقبًا طرفها وهو يحترق، ثم سحبت نفسًا عميقًا حرق صدري لثوانٍ، قبل أن يصعد الدخان متغلغلًا إلى رأسي، ليجلس واضعًا ساقًا على ساق، ويبدأ في رسم رحلة استرخاء أخرى..

استطعتُ أن أميز طبع الحسن المختوم على ذقنها، وأنا أقول محاولًا أن أبدو مرحًا:

- طيب إيه.. هنفضل قاعدين هنا؟!

لم تجب، واكتفت بأن أرخت جفونها بعد أن طوحت شرودها بعيدًا..

رميتُ السيجارة جانبًا بعدما سحبتُ منها نفسًا أخيرًا طويلًا، ثم مددتُ يدي أرفعها من على الأرض.. يمكنني الآن أن أميز لون عينيها.. زرقاوين بلون مياه البحر وقت الظهيرة..

حين أمسكت يديها انتفضت في مكانها بعنف، فتركتها بعد أن

أعطتني انطباعًا أنني كنت أحاول اغتصابها وليس مساعدتها على الوقوف..

انسابت الدموع من عينيها، كنهر يفيض من منابعه الزرقاء، ثم راحت تصرخ وهي تحارب وتضرب طواحين الهواء بقبضتيها.. كانت في حالة هياج غريب، بلا شك مقدمة أو نهاية انهيار عصبي.. ليست لدي الخبرة الطبية في هذا الموضوع، لكن صفعة قوية هي كل ما يمكن أن أفعله.. حسنًا، لقد كانت ثلاث صفعات قوية، انْهَلتُ بها عليها، قبل أن تدفن رأسها داخل صدري وتهدأ قليلًا مكتفية ببكاء صامت بللت دموعه صدر ملابسي:

- حصل خير.. قومي معايا.

استجابت هذه المرة وبدأنا نبتعد عن المكان.. نظرت في الساعة.. تقترب من الواحدة.. لا بد أن نادية ترسم داخل رأسها الطريقة المثلى لتقطيعي بالسكين ومن ثم تعبئتي داخل أكياس سوداء بلاستكية.. اللعنة تذكرت الآن أنها اشترت بالأمس كيلو أكياس سوداء.. هذا لا يبشر بالخير مطلقًا.

التفتُّ ناحية الفتاة.. لاحظت كدمة زرقاء تبدأ جذورها من أعلى العنق وتمتد إلى أسفل ملابسها..

كانت تسير بجواري مرتبكة تضم يدها إلى صدرها ولا تنظر إلى ما بعد خطوتها القادمة.. رأيت أن ذلك بشارة خير على عودة رشدها.. حاولت بثَّ الطمأنينة في نفسها:

- بصي.. أنا مش هسألك إنتي كنتي عاوزة تعملي في نفسك كدا ليه.. لكن كل حاجه وليها حل.. ومستحيل يكون الحل أنك تموتي نفسك.

اكتفت بالصمت، لكنها التفتت نحوي.. عدتُ أستطردُ:

- لكن لو تحبي تفضفضي معايا شويه أنا معنديش مانع،

جاوبتني هذه المرة بصمت جديد.. عدتُ أقول:

- صدقيني مفيش حاجة تستاهل إنك تموتي نفسك عشانها.. لو كانت المسألة ماديات أو حب ممكن..

قاطعتني:

- الشيطان.

صدمتني الكلمة، وضعت تحتها خطًّا، ورسمت حولها عشرات القصص المأساوية، ثم محوت كل ذلك وقلت:

- مضبوط لحظة ضعف واستغلها..

- الشيطان بشوفه كل يوم.

حاولت أن أجاريها:

- شيطان حقيقي ليه قرنين وكدا.. ولا قصدك واحد شكل الشيطان؟!

صاحت بحدة:

- بقولك الشيطان!

بعدها التزمتُ الصمت.. حاورتُها قليلًا.. علمت أن اسمها (سارة).. تعمل في بوتيك ملابس.. كانت حاصلة على دبلوم تجارة، تلك الفئة التي تنهي الدبلوم ثم تلتحق بالعمل لدى أي محل أو صيدلية أو أي مكان يدفع ٣٠٠ جنيه شهريًّا.. ارتقاؤها في العمل يتوقف في معظم الأحيان على حسب جمال مؤخرتها وكيفية استغلاله..

حاولت إقناعها بعبث ما كانت تودُّ أن تفعل.. شعرت أنها استجابت لكلامي قليلًا.. على الأقل هي ظنت أن ظهوري لها كان إشارةً من الله على أنه غاضب منها.. أتمنى من داخلي ذلك فعلًا.. ما زلت على اعتقادي أن شيطانها هو شاب قطف زهرتها وتركها تحمل الجرم في أحشائها وتخاف من اليوم الذي يكشف فيه عن نفسه حاملًا العار لها ولأسرتها.

أوصلتها إلى حيث أخبرتني أنها تعيش.. كانت شقة في الدور الأخير لعمارة قديمة متآكلة الجدران، بدت لي مهجورة لا يسكنها غير الريح..

أمام مدخل العمارة طاولة بلياردو جديدة تستمدُّ إضاءتها من وصلة كهرباء مسروقة من عمود نور..

التفَّ حول الطاولة مراهقان على أعتاب مرحلة الشباب، وقد انصبَّ كل تركيزهم في اللعب حتى إنك لتظن من فرط الجدية في ملامحهما أن العالم سينهار إذا لم تسقط الكرة في الحفرة..

كان هناك أيضا ثلاثة آخرون يشجعونهم بلا ولاء حقيقي لأي طرف منهما، ويتبادلون النكات البذيئة المتبوعة بضحكات شخص يعاني مرضًا بالأحبال الصوتية..

على مسافة قريبة يجلس شاب نادم الملامح، منكوش الشعر، نابت الذقن، يبدو أنه صاحب الطاولة، وينظر إلى ساعته بين الحين والآخر.. بجواره قرأت لافتة كُتبت بخط رديء للغاية وبها خطأ إملائي واضح (ساعة البيلادرو ٥ جنيه).. بجانب اللافتة وضعت لافتة أنيقة لـ(احمد شفيق) مرشح الانتخابات الرئاسية.

حين مررنا من أمامهم بدونا كشبحين لم يلتفت لنا أحد..

تأكدت من صعودها درجات سلم العمارة العريض، ثم غادرت مسرعًا دون أن أنظر خلفي، وأنا أتساءل: كيف يمكن أن يصبح هذا اليوم أسوأ مما هو عليه؟!

كنت على وشك اكتشاف ذلك بعد قليل.

* * *

أتخيل الآن شكل نادية وهي تدور في المنزل وأمامها التورتة لاعنة استهتاري وعدم التزامي بالميعاد..

أمام المنزل بمسافة قليلة أجريت اتصالًا معها.. فكرتُ للحظة أن أكذب عليها بشأن تأخيري، لكني أعرف أنها تشتمُّ كذبي من على بُعد.. سأخبرها الحقيقة على أمل أن تلتمس لي العذر..

تساءلت وأنا أعيد الاتصال مرة أخرى: لما لا تجيب؟!

مررتُ أمام محل البقالة، فألقيت سلامًا مقتضبًا على صاحبه، حين سمعت فتح الخط.. استبقتها قائلًا:

- أه بس لو تعرفي إيه اللي أخرني!

- أنت فين دلوقتي؟

- أنا خلاص قربت من البيت.. قدام محل البقالة.. تحبي أجيب حاجة؟

- ميت مرة أقولك متشتريش من الراجل ده.

اختلطت هذه الجملة بتهليل يأتي من أمينة:

- ماما.. بابا جه.

حينها استطردت نادية وهي تزفر:

- كفاية كذب.. أمينة سمعتك وأنت بتدخل.

اقشعرَّ جسدي مع تلك الجملة الأخيرة، وأجفلت في مكاني لحظة:

- حبيبتي.. أنا لسه برة.

يمكنني أن أسمع دقات قلبها وأتخيل عينيها تتسعان ذعرًا:

- إمال مين اللي بيتحرك دلوقتي جوه البيت.

هرعت بأقصى قوتي نحو المنزل الذي بدا شبحه يلوح في الأفق.. صرخت:

- اقفلي الباب عليكوا.

صوتها يأتي مذعورًا من وراء الأثير:

- إلحقنا يا فتحي.

ثم صراخ ابنتي يأتي متوسلًا مع صوت كسر باب المطبخ:

- آآآآآه... ماما.

الأصوات تتغير، ثم جلبة وأشياء تسقط تنمُّ عن وقوع معركة سريعة، بعدها ساد صمت مخيف..

الأدرينالين يندفع في جسدي بقوه كلما اقتربتُ حتى كدت أن أحترق، أنفاسي تكاد أن تقطع رئتي..

جزء من عقلي يسألني: هل سأصل في الوقت المناسب؟

قطعتُ الأمتار المتبقية في قفزة واحدة.. الباب كان شبه مفتوح، بينما الظلام يقبع داخله كوحش أسطوري..

اقتحمتُ المنزل بلا تفكير، غير عابئ بما قد ينتظرني:

- أمينة!

صعدت مباشرة إلى الطابق العلوي، وأنا مستمر في النداء الـذي لا يجاب.

- مكانك.. متتحركش.

تسمَّرْتُ في مكاني وأنـا ألتفِـتُ نحـو صـاحب الـصوت.. لم يكـن أمامي فرصة للتراجع.. عيناي تعتادان الظلام تدريجيًّا.. حاولـت تمييـز ملامحه.. كان ضخم الجثة ذا بشرة شـاحبة كالأشـباح وعينـين حمـراوين داكنتين ينبعث منهما وميض خافـت، ويرتـدي زيًّـا كـاملًا مـن الجلـد الأسود:

- أوعى تكون أذيتهم.

لاحَ شبح ابتسامة صغيرة على جانب فمه وهو يغمغم ببرود:

- عبثية الوجود وحتمية الموت.. أول مره أفهم معنـاهم الحقيقـي دلوقتي.

تحركتُ خطوه للوراء بينما دنا مني بهدوء.. تعثـرتْ قـدمي بجـسد لين مُسجًّى على الأرض.. سقطت فوقه.. للحظة لم أستوعب الموقـف.. عيناها المذعورتان وخيط الدماء الذي يسيل من منتصف جبهتها.

- أمينة!

يد باردة تعتصر قلبي ولا تفلته.. احتضنتها وأنا أصرخُ في هلع:

- آآآآآه.. لا.

الرجل يصوب مسدسه مستهدفًا رأسي دون أن يبدي أي ذرة تـردُّدٍ و..

وانتهى كل شيء.

* * *

تغلبتُ على خوفي دفعة واحدة، وانـدفعتُ باتجـاه الرجـل الـذي لم يتوقع أن أهاجمه.. شرارة تخرج مـن فوهـة مـسدسه، مـع دوي صـوت رصاصة انطلقت نحوي.. أحسستُ بحـرارة لافحـةٍ وبـسهم نـاري في صدري، قبـل أن أرتطـم بالرجـل، لنتـدحرج معًـا مـن فـوق درجـات السلم.. العالم يدور من حولنا بسرعة هائلة وأنا أضربه بكل مـا أوتيـت من عزم وغضب.. للحظة شعرت أن الـزمن تـد توقـف، وأن صراعنـا سيستمر إلى الأبد..

استقر بنا الحال عند الدرجة الأخيرة، بعـد أن ارتطمنـا بهـا بعنـف وانفض اشتباكنا..

الرجل ساكن تمامًا والدماء تسيل من مؤخرة رأسه..

ألتقط أنفاسي قليلًا..

قفزت فوقه.. عدتُ لأضربه من جديد..

ومن جديد..

عظام وجهه تختلط بدماء قبضتي التي ما تزال تسحقه..

حين انتهيتُ منه لفت انتباهي الوشم الغريب الذي يبدو كثعبان أسود يلف ذراعه وحتى عنقه..

أحسستُ بألم في صدري.. تذكرتُ الرصاصة التي اخترقته منذ قليل.. مددت إصبعي داخل الفتحة التي صنعتها الرصاصة..

حاولت أن أتحرك صاعدًا مره أخرى إلى أعلى.. تهاوت قواي.. سقطتُ فوق الرجل.. نظري أصبح مُشوَّهًا.. الثعبان الموشوم فوق ذراعه يتحرك من مكانه وينسل من أسفل الجلد، وهو يفتح فكيه كاشفًا عن زوج من الأنياب الذهبية التي تقطر سمًّا، حين انقض على ذراعي اليسرى فجأة، وغاص داخلها في لمح البصر.. صاعقة كهربية تضربني، وإحساس بأن الثعبان يتغلغل في عروقي وخلاياي ليلدغني بين الحين والآخر.. جسدي ينتفض بعنف، ومادة بيضاء تسيل على شدقي مع مزيج من الصور بالأبيض والأسود تمرُّ أمام عيني الشاخصة..

وأخيرًا لم يعد وعي قادر على الصمود، فأعلن استسلامه، لتظلم الدنيا فجأة من حولي، في حين راحت بقعة دماء تتسع خلف ظهري تدريجيًّا.. وتتسع.

* * *

ذكرياتي تطفو كفقاعات هوائية فوق سطح بحيرة ضحلة.. شاب

زنجي يرتدي ملابس ممزقه ترجع للعصور القديمة يحدق في البركة بلا حراك وخلفه خيمة قديمة تحترق ببطء..

تقدَّمتُ نحوه عدة خطوات.. هناك ثعبان أسود مخيف يلتف حول ساعده ويلدغه في عنقه بين الحين والآخر.. شاهدت هذا الثعبان من قبل.

- إنت مين؟

لم يُجِبْني.. لسبب ما أشعرُ أنني أعرفه.. رفع عينه باتجاهي.. أخذ جسده كله يهتزُّ بشدة.. الثعبان يتضخم ويعتصره بلا رحمة، ثم انفجر كلاهما فجأة في وجهي كقنبلة مدوية، غرقتُ بعدها وسط مزيج من الدماء والأشلاء.

صرختُ وأنا أستيقظ مفزوعًا..

كنتُ في غرفة نصف مظلمة، والهواء مُعبَّقٌ برائحة الكحول الطبية، فيما كان بجوار رأسي آلة لقياس ضربات القلب..

حاولت تحريك ذراعي اليمنى.. ألمٌ حادٌّ منعني من ذلك.. هناك إبرة تنتهي بمحلول معلق على حامِلٍ معدني..

شعرت بألم شديد في منتصف صدري.. ضمادة ضخمة تحيط به..

رفعت يدي الأخرى أتحسس موضوع الألم.. ألمحُ عروق ساعدي الأيمن نافرة كمريض بالدوالي.. العروق تتجمع معًا في تشكيل

غريب.. ببعض الخيال يمكنني أن أُقْسِمَ إنها تبدو كوشم الثعبان، الذي رأيته على ساعد من هاجمني، وفي الكابوس السابق..

ما الذي حدث لزوجتي وابنتي؟!

نبضي يتسارع..

جهاز مراقبة القلب يزيد من سرعة طنينه كذلك..

اندفع طبيب إلى داخل الغرفة، وقد أثار فزعه - على ما يبدو - الصوت المتسارع الصادر عن الجهاز.. كان طبيبًا شابًا يبدو أنه في مرحلة الامتياز.. أجرى فحصًا سريعًا ثم غادر وهو ينادي أحدهم.. صحتُ:

- مراتي وبنتي.. هما بخير.. أرجوك.. عاوز أعرف.

حاولتُ النهوض لكن الألم ضرب كل جسدي..

استكنتُ على الفراش محاولًا تجاوز الألم وأنا أتنفس بصعوبة..

سمعت أصواتًا تقترب..

عاد الطبيب الشاب برفقة رجل أكبر سنًا عابس الوجه، ابتسم في وجهي بصعوبة وهو يقيس ضغطي:

- حمد لله على سلامتك.

- إيه اللي حصل؟

- إستريح أنت بس.. كلهم بخير.

قالها بروتينية باردة، ثم التفتَ إلى الطبيب الشاب:

- نفس العلاج يفضل ماشي عليه.

ثم غادرا مسرعين دون كلمة أخرى، ودون أن يلتفتا إلى ندائي الأخير:

- يا دكاترة.. لو سمحتوا!

التفتُّ نحو زجاج النافذة المغلق الذي يعكس صورتي.. ملامحي تغيرت بفعل الضمادات التي تحيط برأسي وعيني المنتفخة.

دخلت ممرضة كئيبة الوجه، أفرغت ما في القسطرة من خطايا، قبل أن تلملم بعض الشاش والقطن وتغادر المكان في صمت كما دخلت.

نصف ساعة مرت، بعدها دخل رجل حاد الملامح، ذو بشرة سمراء وعينين غائرتين، أكل الصلع كل شعر رأسه.. اتبعه رجلان آخران.

توقف بجوار رأسي مباشرة.. صوب كشافه البصري في وجهي:

- حمدا لله على سلامتك.. أنا الرائد (صفوت).

ثم تناول كرسيًّا وجلس عليه، وأشار إلى أحد الأشخاص بفتح محضر.. قلت وأنا أتجول في وجوههم:

- مراتي وبنتي.. عاوز أشوفهم.

- هتشوفهم.. إحكي ليا الأول إيه اللي حصل.

قالها حين دخل الطبيب الشاب .. رماه صفوت بنظرة مفادهـا: ألّا تتدخل.. أشاح الطبيب بوجهه واكتفى بمتابعة جهاز مراقبة دقات القلب ..

لمدة ساعة كاملة قصصتُ عليه كل ما مررتُ به تلك الليلة.. نظرات الشك وعدم التصديق كانا هما العنوان الأبرز لصفوت..

عندما انتهيتُ أشار صفوت إلى معاونه بغلق المحضر:

- لما تقوم بالسلامة.. إبقى عدي علينا في القسم.

وقبل أن يغادر عدتُ أسأله وأنا أشعر بروحي تنسحب من قدمي:

- بالله عليك هما بخير!

تردد للحظة، ثم تنهد راسمًا على وجهه قناع الحزن:

- إنت إنسان مؤمن و...

هذا هو صوت الزناد قبل إطلاق الرصاصة.. واستطرد:

- البقاء لله.. شد حيلك!

قالها لتضربني قبضة عبد زنجي وتلقيني داخل فم ثعبان.. أسود.

* * *

الفصل الثاني

أوقفني سائق التاكسي أمام باب المنزل مباشرة، كان هناك أمين شرطة وعسكري رابضين أمام المنزل يستكملان بعض التحرّيات..

قدَّمتُ قدمًا وأخرتُ أخرى، وأنا أنظر إلى الباب كصديق صار عدوًّا أخشى من مواجهته..

أخرجتُ سلسلة المفاتيح، فسقطت من يدي نتيجة ارتعاشة لا إرادية ضربتني فجأة.. عندما هممتُ بأن أنحني لالتقاطها امتدت أصابع طويلة تلتقطها:

- على مهلك.

قالتها سارة وهي تساعدني على الوقوف، وتستطرد فيما يشبه الأسف:

- حمد لله على سلامتك.

كانت تكتسي بسواد الحزن..أجبتها:

- الله يسلمك.. مكنش فيه داعي تيجي.

لم يبدُ أنها سمعتني..فتحت الباب وأدخلتني، ثم أجلستني على الأريكة التي تتوسط الصالة..

تلفتُّ حولي وكأني أرى الصالة لأول مرة.. أكاد أقسم أني أشعر بقدوم أمينة الآن.. إنها لم تغادر بعد.. أنفاسها ما زالت موجودة، يمكنني أن أشتمَّ رائحتها.. صوت نادية تتردد أصداؤه بين الجدران: فتحي.. فتحي.

سارة انهمكت في تنظيف الشقة.. كانت حريصة على ألا تحرك شيئًا من مكانه حفاظًا على مشاعري.. فتحت النوافذ ليدخل ضوء الشمس الذي بات بالنسبة لي صديقًا لا أرغب في رؤيته مرة أخرى..

تركتها ووضعت نفسي أسفل كابينة الدش في الحمام، تغسلني المياه وتمسح معها أوساخ ليالٍ مضت..

عندما انتهيتُ كانت سارة قد انتهت، وأضافت عطرًا خفيفًا في الجو لتزيل الرائحة العطنة التي كانت تحتلُّ المنزل..

وضعت أمامي طبقًا كبيرًا، كانت قد أحضرته معها، يحوي فرخة مسلوقة تتصاعد الأبخرة من حسائها، الذي تطفو فيه مع قطع من البطاطس والبسلة:

- معلش.. مش هقدر أحط حاجه في بقي.

- بص.. لازم تاكل.. مش هينفع تعيش على الدواء بس.

قالتها وانتزعت صدر الدجاجة، ثم وضعت قطعة منها داخل فمي قبل أن أتمكن من الاعتراض.. استطردت:

- الحتة دي بس عشان خاطري.

انتظرت حتى انتهيت من أكل معظم الدجاجة، ثم قالت فيما يشبه الندم:

- أنا آسفة.. مقدرتش يومها أشكرك على اللي عملته معايا.. الوقت اللي أنت ضيعته معايا، كان ممكن تلحق تنقذ فيه أسرتك و..

قاطعتها:

- متشيليش نفسك ذنب ملكيش حاجه فيه.. ده قدر.

أطرقت برأسها أرضًا.. تشعر بالذنب.. لا تستطيع أن تتحمل مرارته وقسوته.. جمعت أشياءها وغادرت بعدما أخبرتني بأنها ستمرُّ عليَّ بين الحين والآخر.. لا أحتاج إلى أن يزورني أحد.

عندما أغلقت الباب خلفها أخرجتُ من محفظتي صورة صغيرة تجمعني مع أمينة ونادية.. لم أدرك من قبل روعة ابتسامتها.. تذكرت أيامي القديمة معها، فأخذ قلبي يمتلأ بالحنين حتى انسكب..

مررتُ إصبعي فوق الصورة حين ترقرقت الدموع في عيني و..

وبكيت

* * *

شقت شفرة الموسى لحم عنقي..

خيط أحمر طويل من الدماء يجري بلا انقطاع..

استلزم الأمر مني وقتًا طويلًا حتى انتهيتُ من حلاقة ذقني، ونظفتُ الجروح التي خلفها موسى الحلاقة..

خلعتُ كامل ملابسي ونظرتُ إلى نفسي في المرآة..

وجهي انسحب إلى الداخل، برزت عظام وجنتيه، وغارت عيناه على نحو يشير إلى أنني مريض جدًّا.. من داخلي أشعر أنني موفور الصحة تمامًا، لكني نفسيًّا محطم..

عروقي وعضلاتي نافرة على نحو مبالغ فيه لدرجة أصلح أن أكون صورة تشريحية لطلبة الطب..

تحسست جرح صدري.. اندمل بسرعة غير عادية كما أخبرني الدكتور، ندبة بسيطة هي الأثر الوحيد الذي تركه خلفه.

عدت أرتدي ملابسي، وألقي نفسي في أول تاكسي رأيته عند خروجي من المنزل..

ضوء الشمس شديد، ويضرب في عيني، يسبب لي تشوشًا بصريًّا وألمًا يضاف إلى الصداع الذي أشعر به منذ الصباح.. تذكرت دوائي..

نسيت أن أتناوله.. ليست هذه المرة الأولى التي أنساه، ربما تكون.. لا أعلم، فقط أنا أنساه كثيرًا..

استكنت في مقعد التاكسي وأرخيت جفوني.. السائق ألمحه ينظر إليَّ من طرف عينيه ثم يتأفف وهو يلعن الركاب أمثالي.. تكهربت أعصابه للحظات عندما طلبتُ إليه التوجه إلى القسم..

انتظرتُ نصف ساعة حتى استطعتُ أن أدخل إلى الرائد صفوت، متذكرا أمين الشرطة الذي جاني أمس وطلب مني أن آتي مبكرًا لاستكمال التحقيق.

- إتفضل.

قالها صفوت ببرود، وهو يشير لي بالجلوس على مقعد متوسط الحجم، تآكل جزء من كسوته..

تركت جسدي يسقط حيث أشار.. كانت الغرفة متوسطة المساحة، عالية السقف، كل شيء بها يوحي بقوة السلطة بدءًا من رائحة المسدس الذي يضعه صفوت أمامه، وصولًا إلى شعار وزارة الداخلية المعلق خلفه..

كان صفوت يجلس على مكتب ضخم، أسود اللون، تراصت فوقه الأقلام والدوسيهات بعناية بالإضافة إلى كمبيوتر شخصي PC تعلوه شاشة LED

تفحص وجهي للحظات:

- عامل إيه النهارده؟

- أحسن.

تناول علبة سجائر أمريكية الصنع، فض خيطها ببطء، ثم تناول منها سيجارة وأشعلها نافثًا دخانها في الفراغ المقابل لي:

- بص يا فتحي.. في نقطه مفقودة في حكايتك.

عقدت حاجبي:

- نقطة.. نقطه إيه بالضبط؟

- الراجل اللي إتهجم عليكم.. ملقناش له أثر.. حتى جيرانك مفيش حد قدر يذكر إنه شاف شخص بالموصفات اللي إنت ذكرتها.

- يا فندم أنا اتخانقت معاه.. دمه كان مغرق أيدي.

دنا بوجهه مني:

- إنت متأكد إنه مات؟! فحصت نبضه؟! سمعت ضربات قلبه مثلًا؟!

ترددت:

- لا.. لكن كان واضح قوى إنه مات.. دماغه كانت متكسرة وكنت قادر أشوف مخه.

استند بظهره إلى الكرسي:

- مفيش عداوة بينكم وبين حد.. حتى لو كانت قديمة شويه؟

- إحنا طول عمرنا في حالنا.. ملناش عداوة مع حد.

- إنت كنت أصبيت من فترة باكتئاب.. مضبوط؟

- صحيح.. لكن ده من فترة طويلة.. والذي كان إتـوفى وإتـأثرت باللي حصل فترة.. لكن الحمد لله.. الموضوع انتهى.

- بس أنا أعرف إنك لسه مداوم على بعض الأدوية.

- أيوه. بس مش ده معناه إني مريض.. ده وقاية.

ثم خطرت في بالي فكرة قبيحة قلتُ بحدة:

- إنت بتلمح لإيه بالضبط.. أوعى يكون قصدك إني عملت ده في نوبة اكتئاب؟!

- أنا مقلتش حاجة.. أنت اللي بتقول!

- طيب والدم بتاع الراجل اللي كـان مـالي المكـان.. أكيـد حللتـوه وعرفتوا إنه مش دمي.. تقدر تقولي منين جه؟!

ابتسم:

- قول إنت.

صحت باستنكار:

- واضح إنك عاوز تقفل القضية بأي طريقة وخلاص.

نظر إليَّ بامتعاض:

- في جرائم القتل، الكل عندي متهم.. حتى حكاية الدم الموجود في مسرح الجريمة ليها حل عندي.

- كل حاجة وليها حل.. بس واضح إنك بتدور على الإجابات في المكان الغلط.

دق بأصابعه لثوانٍ على سطح المكتب، وهو ينظر داخل عيني محاولًا سبر أغواري، قبل أن أسمع طرقة مؤدبة على الباب دخل على إثرها مخبر كثُّ الشارب، همس في أذن صفوت بكلمات.. حين انتهى أشار لي بان أخرج قائلًا:

- مع السلامة.. ولو احتجتك هبعتلك.

نهضتُ دون أردَّ عليه واكتفيتُ بنظرة عدائية.. قبل أن أغلق الباب سمعته:

- لاحظ إن القضية لسه متقفلتيش.

تمتمت داخل نفسي:

- ومين قالك إنها ممكن تتقفل؟!

وصفقت الباب خلفي بعنفٍ.

* * *

مر أسبوعٌ كامل تلقيت خلاله العزاء من أقارب وأصدقاء وجيران، ثم أصبحت وحيدا.

لاحظت لأول مره كم كانت زوجتي وحيدة وبائسة.. لم تهنأ - سابقا - بأبويها اللذين ماتا في حادثة ونجت هي بأعجوبة، لم تهنأ كذلك بي أو بابنتها الوحيدة.. يقال إننا لا نعرف قيمة ما نملك من حب إلا بعد أن نفقده، الحقيقة أنني كنت أعرف تمامًا، ولكني ظننتُ -مخدوعًا- إنني لن أفقده أبدًا.

بعد ذلك لم أعد أحصى الأيام.. المنزل تحول إلى عالمي الوحيد، حدودي هي جدرانه الصماء الحجرية..

نور الشمس لم يلامس بشرتي منذ أسابيع ليست بالقليلة.. قليلًا ما أضطر للخروج ليلًا لشراء بعض المستلزمات..

معظم من أعرفه انقطع عن زيارتي، وصرتُ وغدًا بشعًا داخل عالم مظلم من الحزن..

استمرت سارة تأتيني بين الحين والآخر، تكتفي بترتيب المنزل أو إحضار بعض الطعام، والحديث معي في اللاشيء..

أكذب إذا قلت إنني كنت أصغي إلى كلامها.. أتركها تتحدث

متظاهرًا بالاستماع.. هي تعلم ذلك لكنها مستمرة في محاولاتها الجادة والصادقة لإخراجي مما صرتُ فيه..

طلبت إليها أن تتوقف عن القدوم.. ربما كانت هي الخط الفاصل الأخير بيني وبين الجنون، لكني لا أرغبُ في التواصل مع أي كائن.. فقط أريد أن أركب قطار يصل بي إلى أرض النسيان.

* * *

- الله أكبر .. الله أكبر.

الأذان ينطلق مع خيوط الفجر الأولى، بينما امتلأت السماء بهواء ضبابي كثيف حين قررت أن أتجول.. مررتُ من أمام مسجد المدينة الكبير.. يشبه القلب النابض.. أوقفني السلام المنبعث منه.. نظرتُ إلى مئذنته المبنية على شكل قلم رصاص مبري جيدًا..

المؤذن ما زال يترنم بالأذان ويجمله.. أرى المصلين يعبرون بوابته الواسعة ذات الأضلاف الأربع..

لم تخطُ قدمي داخل مسجد منذ عدة سنوات على الرغم من أنه أحد الأماكن القليلة التي كنتُ أشعر فيها بالأمان والراحة.. ربما أكون قد فقدتُ الإيمان فصار هذا هو جزائي..

رحتُ أحدِّقُ في المسجد دون أن أدخل.. كان مغمورًا بالأضواء البيضاء من الداخل..

شـاهدتُ الإمـام يُقـيم الـصلاة وخلفـه اصـطفَّ عـدد كبـير مـن العواجيز الذين أيقظهم الخوف من الله ومن قرب لقائه، يتخللهم بضعة شاب أطلقوا لحاهم وشمروا بناطيلهم..

صوت الإمام وهو يقرأ القران كان عذبًا مثل نهر من عـسل يفـيض أمنًا وأمانًا..

بدأ مطر خفيفًا بالانهمار.. لامست أول قطرة أرنبة أنفي، اقشعرَّ لهـا جلدي بسرعة.. بعدها بللَّ المطر رأسي، ثم غسل وجهي، حتـى وصـل إلى روحي..

أخذتُ نفسًا عميقًا ثم تقدَّمت من باب المسجد بحذر.. بمجـرد أن دخلت زال كل خوفي وحل مكانه سكينة..

أسرعتُ أتوضأ ثم اتخذتُ مكاني وراء الإمـام في الـصف الوحيـد، والذي أوشك على الاكتمال بشق الأنفس..

أستمع لتلاوة القرآن التي راحت تأخذ بروحي من العدم إلى آفـاق عذبة وعوالم أخرى من الرحمة..

حين انتهيتُ من الصلاة شعرتُ بالارتياح..

اتخذتُ مكانًا لي على جـدار المنـبر.. بجـواري كـان يجلـس الإمـام بجلبابه الأسمر الواسع، منشغلًا بأذكار ختم الصلاة.

- يا رب

قلتها دامعًا.. راجيًا.. مستسلمًا.. مستغيثًا أن يلهمني الصبر في مصيبتي.

- يا رب.

كررتُها.. واستعطفتُ.. وتوسلت.. ثم بكيتُ.. ما أكفرني حين نسيتك!

تناولت مصحفًا وأسندت ظهري على المنبر ورحتُ أقرأ..

صار السلام حليفي..

في الخارج بدأت الشمس تشرق تدريجيًّا وتختفي غيوم السماء.. ثم انهمر المطر فجأة.

* * *

- دي حكومة بنت ستين في سبعين.

صرخ بها عصام عندما انتهيت من سرد ما حدث بيني وبين صفوت..

اختطفني أثناء سيري لشراء بعض المستلزمات.. كان يتجهم كلما استطردت في الحديث ونحن نجلس في ركنه المعتاد على القهوة، بعيدًا عن صخب متابعة بعض الشباب لمباراة الأهلي في كأس العالم للأندية..

تناول حبة حمراء مرسومًا عليها شكل تفاحة فضَّها من ورقة سيلوفان، ثم ابتلعها مع كوب ماء.. قال عندما لاحظ تركيزي معه:

- دي فرداية ترمادول.. الفرافير بيدلعوه وبيقولوا عليه تيمو.

سألته باهتمام:

- بيجيب معاك نتيجة حلوة؟!

أجاب في نفس اللحظة التي سكنت فيها شباك الأهلي الهدف الأول:

- يا عزيزي الترمادول ده بديل عن الصبر.. نص الشعب دلوقتي بيضرب ترمادول لو مش عشان السهر يبقى عشان السكس.

ترددت للحظة ثم قلت في خفوت:

- طيب أنا عاوز.

بدا التوتر والرفض واضحين على ملامحه وهو يقول:

- أنت يا صاحبي ملكش في الحاجات دي.. وحالتك أنا شايفها.. يعني.. بلاش أحسن.

مست تلك الأخيرة كرامتي:

- فيه إيه يا عصام إنت شايفني بموت يعني؟!

- لا.. مش قصدي.. بس...

وراح يبحث بعينه في الهواء عن كلمة مفقودة يكمل بها عبارته.. لم أنتظر.. نهضت وأنا أهتف بحدة:

- هتجبللي ولا أدور بنفسي؟

جذبني من ذراعي وهو يتنهد:

- اقعد بس دلوقتي.. متتعصبش كدا.

قلت بنفاد صبر:

- أنا مش متعصب ولا حاجة.. مستعجل بس.

أجاب مستسلمًا على مضض:

- ماشي.. أنا جاي معاك.

ثم نادى على القهوجي وطلب إليه حفظ الحساب على النوتة.. شبك يده في يدي وخرجنا.. قال:

- هخدك معايا لواحد حبيبي.. اسمه عطوة المجنون.. ده اللي بجيب منه التموين.

ودخل بنا إلى حارة ضيقة حقيرة للغاية تمتلئ بعربات الكارو والموتوسيكلات والأطفال المشردين..

استطرد عصام حين لاحظ تعجبي من الاسم:

- عطوة البرشام جننه، وبوظ مخه، علشان كده طلعنا عليه اسم المجنون.

ثم اتبع كلامه بضحكة طويلة ظل صداها يتردد في أذني بلا انقطاع

توقفنا أمام منزل قديم متهالك يبدو خاليًا من السكان.. طرق عصام باب الدور الأرضي:

- أنا عصام يا عطوة.. افتح يا نجم.

ثوانٍ وظهر لنا من وراء الباب رجل طويل القامة.. أشعث الشعر.. خفيف اللحم والجلد، محني الظهر.. كان يرتدي فانلة داخلية بيضاء قذرة استحال لونها إلى الرمادي، ويضع يده اليسرى داخل بنطلونه يداعب بها قضيبه.. قال بصوت متجهم بعدما اطمئنَّ أن لا أحد خلفنا:

- مين الفرفور ده؟

ابتسم عصام وهو يجذبني من ذراعي للداخل:

- فتحي.. حبيبي قوي وزي اخويا.

- حظكوا حلو.. جايين على قد الاصطباحة.

ثم افترش كنبة قذرة، وأشار لنا أن نستريح على أخرى أكثر منها قذارة.. هذا طبعًا إذا لم تأكلنا الحشرات التي عليها أولًا..

أخرج من أسفل الكنبة ورقة سيلوفان حمراء علمت فيما بعد أن ما بداخلها قطعة حشيش.. ثم أخرج شريطًا يحتوي على أقراص بيضاء اللون.. صفق عصام بكلتا يديه فرحًا:

- حظك من السماء يا فتحي.. معاه كريستال.

اقتربت من أذن عصام وهمست:

- إحنا هناخد الحاجة وهنمشي.

- اصبر يا نجم.. إحنا جينا ساعة اصطباحه.. ودي ساعة مفترجة.

قام عطوة بتسيح قطعة الحشيش على نار ولاعة صغيرة، ثم مزجها بالكريستالية وطحنهما معًا.. لفهما بعد ذلك داخل سيجارة وسحب منها نفسًا طويلًا التهم نصف السيجارة، قبل أن يناولها عصام، وهو يمسح فوق شعره الذي كاد أن يختفي وسط سحابة الدخان التي أطلقها:

- صباح الفل.

سحب منها عصام الذي بدوره ناولني إياها:

- بالراحة.. واحدة واحدة عشان متكتمش معاك.

سحبت نفسًا ببطء وأنا أراقب نظرات عصام وعطوة لي.. أخرجته على خير ما يكون.. عندها انطلق كلاهما في نوبة ضحك متواصل.

استغرقت جلستنا نصف ساعة كانت كجنة أخرى بالنسبة لي.. قال عطوة وهو يناولني حفنة أقراص داخل كيس شفاف:

- والله أنت ابن حلال.. الكوكتيل ده مبيروحش لأي حد.. تفاح، على كريستال، على زبادي[1].

---

(١) (التفاحة تطلق على نوعية الترامادول ذي اللون الأحمر، والذي يكون مرسومًا عليه شكل التفاحة، وهو أقوى أنواع الترامادول تأثيرًا.. الكريستال أحد =

عند خروجنا ودعنا قائلًا:

- سلام يا بهوات.. أشوفكم بقى في الحج السنة دي.

التفت إليه باستغراب:

- أنت طالع الحج.

- إن شاء الله.. دي عادة أتعلمتها من معلمي الحاج إبراهيم، الله يديه طوله العمر ويفك سجنه.

صافحه عصام:

- تروح وتيجي بالسلامة.. متنساش تبقى تدعي لينا، وأنت واقف على عرفة.

رفع عطوة يده إلى السماء قائلًا في تأثر حقيقي:

- ربنا يكفيكوا شر ولاد الحرام.. قولوا آمين.

- آميييين.

* * *

=أنواع الترامادول وهو أبيض اللون، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه يصعب كسره.. الزبادي هو الاسم الحركي "للأبترل" وهو نوع من الأقراص منتشر بين المجرمين والمسجلين، حيث يشعر من يتعاطاه أنه أقوى شخص في الدنيا، ويتناوله بعض البلطجية قبل الدخول في أي مشاجرة، لأنه يجعلهم لا يشعرون بتأثير الضرب، حيث إن هذا النوع يستخدمه مرضى الصرع).

وضعت أمامي كيس البرشام..

نظرتُ إليه عاقدًا يدي أمام وجهي.. بوابة جديدة أستعدُّ لدخولها.. ترددت لبرهة من الوقت.. حسمت أمري.. طحنت كل ما في الكيس معًا، ثم أذبته مع ملعقة ماء، وأخيرًا سحبته داخل محقن ٥ سم..

أخرجت الهواء من المحقن فتناثرت بعض جزيئات المزيج البرتقالي اللون في الهواء ثم طعنت المحقن في رقبتي بقسوة.. فقدت الأكسجين من حولي فجأة..

سقطت.

حين استيقظتُ في هذا اليوم كان الظلام يلفظ أنفاسه الأخيرة بينما كانت النجوم ما تزال تسطع، والنهار قد بدأ يبتي بمسحة شاحبة من الضوء على زجاج النافذة التي نسيتُ إغلاقها..

أسمع صياح الديكة لأول مرة منذ فترة طويلة.. يقال إنها ترى الملائكة الآن.. كان الصياح جميلًا للغاية.. أغمضت عيني مستمتعًا بذلك قبل أن أفتحها من جديد على صوت الأغنية الصباحية التي تدندن بها نادية، حين قامت من جواري بدون أن تحدث أي صوت تقريبًا.. سارت على قدميها العاريتين نحو شماعة الملابس وارتدت روبًا حريريًا أبيض اللون، ثم انحنت نحوي، وقالت جملة صغيرة بثت في قلبي الطمأنينة:

- صباح الخير.

بعدها دخلت أمينة وقفزت فوقي وهي تضحك.. داعبتها قليلًا، ثم حملتُها إلى الخارج حيث كانت نادية تعدُّ الفطور، وهي ما تزال تتغنى بنفس الأغنية التي لا تنفكُّ تردد منها سوى بضع كلمات:

- صبح الصباح فتح يا عليم والجيب مفيهوش ولا مليم.

وقفت في الشرفة العلوية وأنا أنظر إلى رماح الضوء التي تتجمع بين فتحات الشرفة..

اتجهت عيناي إلى قرص الشمس الذي بدا يظهر في الأفق.. أنزلت أمينة على الأرض، ثم وقفت أتابعها وهي تلهو..

حقًّا هذا صباح ممتاز، ويكاد أن يبلغ الكمال.

انتهينا من تناول الفطور، وجلست نادية تُمشِّطُ شعر أمينة، كانت يداها تنزلقان بكل هدوء بين خصلات الشعر الأسود في نعومة وسلاسة وهي تضفره إلى ضفيرتين، ثم ربطت طرفي الضفيرتين بشريط ذهبي اللون ..

صوت جرس الباب يدق بلا انقطاع مسببًا لي صدمة حسية، على إثرها طافت بذهني ذكرى كابوس مخيف.. مشاهد متقطعة عنيفة..لا.. لا يمكن أن يكون حقيقي.. أفقد الأوكسجين من جديد.. نادية وأمينه ينظران إليَّ بذعر وأنا أهوي على الأرض.. صراخ:

- في إيه يا فتحي.. مالك.. النوبة جتلك.. بسرعة يا أمينة هات لبابا الدواء.

قالتها نادية وهي تحاول تهدئتي.. أتذوق طعم دموعها وهي تتساقط من عينيها على فمي.

أفقد التحكم في أطرافي بغتة.. جسدي ينتفض بعنف.. الضوء يسلبني ويسرق روحي داخل دوامة.. لم يعد يمكنني التمييز.. أنا أهذي بالتأكيد..

أتذكر كلام صفوت حول تناولي أدوية الاكتئاب.. سُحقًا.. مرت شهور منذ آخر مرة تناولت حبة دواء..

ماذا يحدث لي؟! أنا بخير.. بالتأكيد أنا بخير.. دوامة مظلمة تحيط بعقلي.. يمكنني أن أسمع بكاء نادية وكأنه يأتي من مدينة أخرى..

تذكرت سارة وكيف أرادت الانتحار.. والدي مات منتحرًا أيضًا.. لا أحب الموت.. لكن لا أخافه.. ربما لو كنت تركتها لمصيرها لكان أفضل لها ولي.. يمكنني الآن أن أفهم فيما كانت تفكر.. ارتكبتُ خطأ عندما منعتها.. بالتأكيد تلعنني الآن.. لماذا اشتهاها الشيطان دون غيرها؟!

صمت مخيف ضرب المكان فجأة حين اختفى كل شيء من حولي..

أين ذهبتا؟!

حاولت النهوض بصعوبة..

سقطت مرة أخرى..

ذراعي تتحرك رغمًا عني.. الثعبان الأسود يدور حولها ويستطيل حتى يصل إلى عنقي قبل أن يغرس أنيابه حوله.. نابان حادّان يمزقان اللحم مع صوت فحيح حاد وهسهسة مخيفة:

- في إيه؟! أنا إيه اللي بيحصللي؟!

صوتي لم يخرج من حلقي.. ظل حبيسًا.. الثعبان يلدغني مرارًا وتكرارًا، لا يبدو عليه أنه ينوي التوقف إلا بعد قيام الساعة.. هناك ثعبان آخر ينتظرني في القبر.. على أحدكم أن ينتصر على الآخر حتى يظفر بي.

ذكريات الليلة المشئومة تنطلق كومضات متقطعة داخل رأسي.. باب يتحطم، ندائي على أمينة، رجل مخيف يتدثر بالظلام، جثة أمينة وهي بين ذراعي، رصاصة في صدري، معركة، لا شيء.. ثم سقط سقف المنزل من فوقي وخلفه تهاوت النجوم.. والسموات السبع.

* * *

الفصل الثالث

فتحت عيني بصعوبة..

كنت مفترشًا الأرض وقد تحطمت بعض الأشياء من حولي.. لا أعلم كم ظللت فاقد الوعي..

شعرت بألم في فمي.. احتمال أنني عضضت لساني.. ابتلعت ريقي بصعوبة.. سرعان ما تذوقتُ طعم الدماء..

حاولت النهوض.. شعرت أن قضبان حديدية تثبتني على الأرض.. انتصبتُ واقفا وأنا ألهثُ.. حانت مني التفاتة نحو النافذة..كان الظلام قد خيم في الخارج.. رأيت انعكاس صورتي على الزجاج.. كنت أبدو شاحبًا منهكًا..

وضعت رأسي أسفل صنبور الماء لعدة دقائق غير عابئ ببرودته الشديدة التي تقترب من برودة التجمد..

نظرت في المرآة.. الوشم استطال على نحو غريب حتى أصبح فم الثعبان يحيط بعنقي.. تحسست عنقي.. العروق برزت وشكلت هذا

الوشم.. برقت عين الثعبان فجأة.. قنبلة فزع تنفجر في صدري.. تراجعت إلى الخلف بحدة فتعثرتُ، ثم سقطت على وجهي..

خرجت من المنزل وكأن الشياطين تطاردني.. أريد أن أجري.. أن أصرخ حتى يُغمى عليَّ.. لكن لا بد أن أهدأ..

أحتاج إلى أن أهدأ.

في الشارع الناس يمرون أمامي مسرعين.. لا أعلم السبب.. لكنهم مسرعون أكثر من اللازم.. أكثر من الحقيقة..

وجوههم ممصوصة.. ينظرون إلى بشفقة.. وأحيانًا بخوف.

وصلت إلى الميدان الذي كان خاليًا في هذه الليلة الشتوية إلا مني ومن بائع الجرائد الذي كان يستمع إلى الراديو باهتمام حتى أنك لتظن أنه ينتظر أن يسمع متى سينتهي العالم..

جريت بعيني على عناوين الصحف والمجلات.. شيء ما أخيرًا قد يخرجني مما أنا فيه..

أوقفني رنين الهاتف الذي جاء مزعجًا لبائع الجرائد، فنظر نحوي هو وقطته البيضاء التي بخَّت في وجهي وكأني الفار الأمريكي جيري..

انتبهت لصوت سارة، الذي جاءني متوترًا، بعد سؤال مفصل عن صحتي وعن مكاني استغرق أكثر من ٥ دقائق:

- صوتك مش عاجبني.. إنت متأكد إنك كويس.

- أنا تمام، بس يمكن عشان الشبكة ضعيفة، فصوتي بيصور ليكي ده.

- أنا جايه لك حالًا.

- سارة.. مفيش داعي.. بجد أنا كويس.

قلتها حين لمحتها قادمة نحوي.. وضعت الهاتف في جيبي وأنا أستقبلها متسائلًا.. تجيب بابتسامة:

- أصلي كنت بكلمك وأنا قدام بيتك.. وطول المكالمة كنت ماشية نحيتك.

جلسنا على الاستراحة الحجرية الموجودة على أطراف الميدان.. لامست أطراف أناملي قائلة:

- أنا عارفة إنك من جواك مش عاوز تشوفني.

- أوعي تقولي كدا.. الموضوع كله إني حاليا مش لاقي نفسي.. حاسس إن فيه حاجه غريبة بتحصللي.

ثم أدرتُ دفة الموضوع بلا مقدمات:

- لسه الشيطان بيظهر ليكي؟!

ضحكت:

- لا.. الحمد لله مظهرش من أخر مرة.. واضح إنه مشغول بحد غيري.

- أو يمكن مستنني فرصة معينة.

- قصدك إيه؟! مش فاهمة.

- مش قصدي حاجة معينة.. خلي القرآن شغال في الشقة ليل نهار.

- والله الراديو مفتوح على إذاعة القرآن مبيتقفلش.

ضحكة ماجنة هزت الميدان مع اقتراب ثلاثة شبان يتخبطون معًا ويطلقون النكات البذيئة..

تبادلت أنا وسارة النظرات واكتفينا بالصمت ومتابعتهم بأعيننا..

- زامو عليكوا.

قالها أحدهم، بوجهٍ قطعته ضربة مطواة بالطول وهو يغمز بعينه.. قال آخر:

- متجيب الأمورة أبرنس.. واخلع أنت.

شممت رائحة أنفاسهم التي اختبرتُها من قبل عند عطوة.. جذبتني سارة من ذراعي وهي تنهض:

- قوم يا فتحي.

استجبت لها حين قطع ثالثهم علينا الطريق، وهو يشهر علينا سنجة قصيرة، بيد ثقيلة العضلات، ممتلئة بالثقوب الناتجة عن الحقن:

- رايحين على فين؟ عليَّ النعمة لنعمل حفلة.

بائع الجرائد ألمحه يدير وجهه.. بالنسبة لما يحدث الآن، هو أعمى وأخرس وأبكم أيضًا.

الثلاثة يطوقوننا بإحكام..

قبضت على معصمه محاولًا أخذ السنجة.. حدث بعدها كل شيء بسرعة شديدة.. ضربه قوية على ظهري طوحتني على الأرض.. ركلة في وجهي جعلت الرؤية تضيع مني.. خيال ينحني نحوي ثم يرفعني على كتفيه.. حاولت أن أقوم.. ضربة بظهر السنجة فوق رأسي قضت على محاولتي في مهدها.

لقطات مبتورة بعد ذلك.. سارة وهي تحاول الصراخ.. صفعة على وجهها جرحت شفتيها وأسالت منها الدماء.. حارة ضيقة مظلمة نغوص فيها وسط مواء قطط وزمجرة كلاب جرباوات.

- فتحي.. فتحي.

صوت سارة يأتيني من بعيد مذعورًا.. اثنان يسقطانها أرضًا ويشلان حركتها وهما يضحكان بهستريا.. فيما يحاول الثالث الشروع باغتصابها.

مياه قذرة دخلت في فمي حين حاولت الصراخ.. شهقت قبل أن أبصق القذارة وما علق منها بين أسناني..

استندت بيدي على الأرض وحاولت النهوض.. أثقال رهيبة فوق ظهري تحاول منعي.. أسمع أحدهم يحدث الآخر بانزعاج:

- اجري.. إلحقه.. خلص عليه المرة دي.

أعقب ذلك قيام أحدهم نحوي، ثم ركلة عنيفة صرخت ليها خصيتاي.. سعلت بشدة حتى كدت أن أتقيأ.. العرق البارد ينهمر على جبيني بالرغم من برودة الهواء فيختلط بخط الدماء النازلة من رأسي.. نيران ملتهبة تسري في عروقي كالهشيم..

الركلة الثانية كانت في اتجاه عنقي.. قبضت عليها وهي في طريقها بيدي اليسرى.. وشم الثعبان تدب فيه الروح.. يدور حول ذراعي إلى مالا نهاية.. أسمع صوت الفحيح حادًّا.. زدت من ضغطي على قدم الشخص.. أسمع صوت العظام وهي تتهشم بين أصابعي.. يصرخ فيَّ مزيج مخيف من الرعب والألم..

نهضتُ حتى أصبحت في مواجهته.. عيناه المذعورتان تنظران لي بذعر.. قبضت على عنقه.. رفعتُه عاليًا بامتداد ذراعي.. يضرب بقدميه ويديه الهواء حتى باتت روحه في حلقه..

ألمح الاثنين الآخرين يلتفان من حولي وقد أخرج كل منهما سلاحًا أبيض.. طوحت الذي أرفعُ في الهواء فطار نحو ثلاثة أمتار قبل أن يصطدم بعمود إضاءة بلا لمبة، ثم يسقط بلا حراك وقد انحنى ظهره على نحو بشع..

صرخت بكل قوتي..

ظلال سوداء كأذناب العقارب تتبختر من حولي.. نار بلا وهج تخرج من صدري.. توترت عضلاتي.. أحسست أنها ستنفجر.. صررت أسناني إلى أقصى حد،

الاثنان ينظران بخوف..

انقض صاحب ضربة المطواة وهو يصرخ مُطوِّحًا السنجة في الهواء.. استقبلت هجومه بضربة عنيفة على فكه فحطمته بدويٍّ مزعج، وألقتْه بعيدًا جدًّا في الهواء، حتى بدا للحظة أنه سيظل طائرًا إلى ما لا نهاية، قبل أن يسقط على ظهره بلا حراك في منتصف الحارة وقد تدلى فكه على نحو بشع..

دار صاحب العضلات المفتولة من حولي وهو يزوم.. تبادل النظر بين رفيقيه وبيني فيما يشبه عدم تصديقه لما حدث..

أرى الدماء تهرب من وجهه..

أخرج سرنجة تحوي سائلًا أبيض نصف شفاف.. أغمدها في رقبته بلا تردد.. السائل يختفي داخل عنقه.. عيناه تجحظان قبل أن تنقلبا إلى الوراء، ثم أطلق حشرجة مخيفة، ورأسه يميل إلى الوراء حتى كادت فقراتها أن تنكسر.. أعاد رأسه إلى وضعه وهو يطلق حشرجة مخيفة..

ابتسم لوهلة ابتسامة شرسة..

قبضتان من حديد تحيطان بخصري من الأمام وهو يصرخ ثم يرفعني في الهواء.. يعتصرني بكل قوته مسببًا آلمًا لا يُحتمل على كليتي

وعمودي الفقاري.. عضلاته القوية قادرة - بلا شك - على كسر عمودي الفقاري في ثوانٍ..

تحملت ذلك بلا عناء..

ضربتُ رأسي في وجهه فهشمتُ أنفه.. تحملها في جَلَدٍ غير عادي.. سحبتُ نفسًا عميقًا وأنا أنظر في عينيه فيما رحتُ أباعد يديه عن خصري.. شرايين عينه كادت أن تنفجر وهو يحاول الحفاظ على مسكته..

أدرت ذراعه بحركة عكسية حتى سمعتُ صوت تحطمها.. صرخ بأعلى صوته من الألم..

حين نظرتُ إلى وجهه تحول إلى اللون الرمادي في ضوء القمر الشاحب.. ضربة أخيرة مني على رأسه أسكنته في غيبوبة سريعة.

توقفت في مكاني أنظر إلى الثلاثة الراقدين بلا حراك..

سارة تلملم نفسها وتحاول استيعاب الموقف..

أغمضتُ عيني بسبب شدة الألم الذي ضربني في رأسي.. عادت إلي رؤية سابقة.. الشاب الزنجي الذي يرتدي ملابس ترجع للعصور القديمة ويحدق في بركة شبة جافة وخلفه خيمة قديمة تحترق ببطء.. رفع وجهه نحوي ببطء.. قال بصوت غليظ:

- كلهم ملعونين.

- أنت مين وعاوز مني إيه؟

- كلهم لازم يموتوا.

ومِن دون سابق إنذار هبَّتْ رياح ساخنة اجتاحتنا معًا.

* * *

صرخت ثم فتحت عيني.. نظرت إلى سارة بقلق وهي تجذبني:

- مالك؟

- مش عارف.. مبقتش عارف إيه اللي بيحصلي.

أخرجتْ منديلًا ومسحت العرق الذي يسيل على جبيني:

- إن شاء الله هتكون بخير.

قالتها مع أنها هي نفسها كانت تعلم أنني لست بخير.. كنتُ أرغب في أن أجلس مكاني.. أشعر بالإجهاد يُطْبِقُ عليَّ.. لم يكن تعبًا عاديًا.. هبط عليَّ فجأة وقد خبت شعلة الطاقة التي كانت تشتعل في عروقي..

سارة تساعدني على أن أتحرك بصعوبة ونبتعد عن تلك الحارة القذرة وما تحويه..

بائع الجرائد نمر به فينظر إلينا بشفقة وقد ظنَّ أن الثلاثة قد التهمونا..

سارة تقرر أن آتي معها لبيتها.. تظن أن حالتي سيئة.. حسنًا.. أنا أشعر أنني مُتعَبٌ وقد أسقطُ في أي لحظة.. لكن لا يجوز

أمام العمارة التي تقطن بها ثم استبدال طاولة البلياردو بترابيزة بنج بونج (تنس طاولة).. ما زال نفس الشاب منكوش الشعر يجلس، ومن ورائه لافتة جديدة (ساعة البنج ٥ جنيه) وبجوارها لافتة لـ (محمد مرسي) بعد أن فاز بانتخابات الرئاسة..

كان هناك أيضًا شابان يتبادلان رمي الكرة البيضاء بمضربيهما الصغيرين والتي راحت تصدر صوتًا شبيهًا بدقات بندول الساعة.

عندما وصلنا إلى الدور الأخير حيث تقطن استطعت أن أرى أسطح منازل المدينة لأول مرة..

وقفت للحظة أمام الباب وأغمضت عينيها ثم تنفست بعمق كأنها تسيطر على نفسها.. أعلم إنها تكره هذه الشقة.. فتحت الباب ودخلنا.. كانت الشقة صغيرة.. يشير هواؤها إلى معركة مستمرة بين البخور والموكيت القديم.. الإضاءة ضعيفة نابعة من لمبة سهاري على وشك الموت، وأمام التليفزيون الذي تعرض شاشته نشرة أخبار بدون صوت، كان هناك رجل أشيب الشعر نائم على كرسي متحرك، وقد تدثر ببطانية سوداء وإن كانت في إضاءة أخرى قد تصبح حمراء.

همست سارة في أذني:

- الحج (سيد) جوز والدتي الله يرحمها.. رباني زي بنته بالضبط.. كان بيشتغل مبيض محارة.. وكان ناوي يتجوز من حوالي سنة.. لكن السقالة وقعت بيه وحصل اللي أنت شايفه.

أومأت برأسي دون أن أتحدث..

فتح الحج السيد عينه بهدوء على أثر هزة ضعيفة من يدها.. رجل سمح الوجه، طيب الملامح، رسم التعب تعاريجه على جبهته.. حوار مختصر جدًا، شرحتُ له من أنا وماذا حدث.

- إن شاء الله هتكون بخير.. إنت مريت بتجربة صعبة.

قالها بصوت خرج ضعيفًا واهنًا وهو يتفحصني بعينه.. استطرد:

- مش المفروض نتصل بالشرطة ونبلغ على اللي حصل.

هزت سارة رأسها معترضة:

- هندخل في سين وجيم وحورات كتير ملهاش لازمة.. البلطجية خدوا جزاهم

قال:

- اللي انتوا شايفينه صح إعملوه.. دخلي فتحي يغسل وشه ويطهر الجرح اللي في دماغه.

ترددتُ، لكن سارة جذبتني من يدي، ثم قادتني عبر ممر ضيق إلى حمام صغير ومعتم.. لمحت انعكاس صورتي على المرآة.. لست بخير.. عيناي محتقنتان بالدماء ومتعبتان

أخرجت سارة موسى وراحت تزيل الشعر من حول الجرح بحذر.. عندما انتهت فتحت الصنبور ووضعت رأسي أسفله.. شعرت

بألم حاد من مكان الجرح.. وضعت بعض المطهر فوقه، ثم راحت تفركه حتى تأكدت من نظافته.. قالت:

- لازم أنضف الجرح كويس عشان التلوث.

ثم جففت الجرح بقطعة قطن ووضعت فوقه ضمادة صغيرة.. بعد ذلك خرجنا.. قال الحج سيد:

- كده كويس.. ادخل اوضتي.. الدولاب.. الدرفة التانية على إيدك الشمال فيها هدومي.. اختار اللي يناسبك والبسه.

وأشار بيده نحو باب مغلق على استحياء.. كانت غرفته تعبق برائحة الأدوية التي تتراص بترتيب على كومود قديم بجوار سرير متهالك تعلوه ناموسية زرقاء مرقعة الفتحات.

تخيرت من الدولاب ما ظننت أنه مناسب لي، ثم خرجت لأجد صينية مرصوصًا عليها الطعام..

تناولنا الطعام بصمت، بعدها توجه عم سيد للنوم..

جلست في مواجهة سارة حين سألتها عن أول مرة بدأت ترى الشيطان في كوابيسها..

تناولت من فوق شوفنيرة أجندة زرقاء رُسِمَ على غلافها بالقلم الحبر فراشة تقف على وردة بلا فروع.. فتحتها على صفحة معينة:

- هنا أنا كتبت.. تقدر تقرا.

ترددت.. وضعتها في يدي وهي تؤمئ برأسها أن لا بـأس.. تحت رسـمة الفراشـة رأيـت الجملـة التاليـة.. (أكتـبُ لأن الكتابـة تمنحنـي الحرية).

تنهدتُ مخرجًا كل الهواء الذي في صدري.. وبدأت أقرأ.

* * *

الوقت كان منتصف الليل..

كنت أشقُّ طريقي بين الحواري الضيقة ذات الحفـر المنتـشرة وميـاه المجاري التي تطفح من طرنشات حمامات المنازل.. بعض الشباب يقف أسفل أحد أعمدة الإنارة يدخن سجائر لا تنطفئ نيرانها أبدًا.. عبـارات بذيئة تصل إليَّ.. اعتدتُ ذلك.. هم حمقى ليس إلا.

حين اقتربتُ من العمارة الكئيبة، التـي تـضجُّ بجـيران أكثـر كآبـة، اعترض طريقي أبشع هِرٍّ أسود في العالم..

الغريب أنه توقف في مواجهتي تمامًا في تحدٍّ صريح.. صوت موائـه كان مخيفًا.. عيناه تشعان بريقًا يمكنه أن يشعل نيرانًا.. كان فاحم السواد بحثت عن نقطة بيضاء في فرائه لم أجدها..

العفاريـت تتجـسد في جثـة قطـة سـوداء.. هـذه معلومـة شربـت حكمتها مع لبن ثدي أمي، استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم..

بـخَّ في وجهـي حـين حاولـت أن أتخطـاه.. دق قلبـي بقـوة حتـى أحسست أنه سيمزق صدري ويخـرج منـه، تناولـت حجـرًا ضـخمًا ...

إلقاؤه كان سهلًا.. اصطدم بوجه القط الذي قفز مذعورًا، وهو يطلق صرخة مسعورة أخيرة، ثم اختفى وسط أكوام الزبالة..

دخلت المنزل وذِكْرى هذا القط الأسود تأبى أن تتركني في سلام.

كان عم سيد جالسًا أمام التلفاز شبه نائم.. أيقظته بحركة من يدي بعد أن وضعتُ أمامه طعام العشاء..

حكيت له ما حدث.. ابتسم وأخبرني بأن أقرأ آية الكرسي قبل أن أنام..

تركتُه ينهي عشاءه على مَهَلٍ، ثم دخلت الحمام، وقتها كانت الساعة قد قاربت الواحدة.. تأكدت من دفء الماء قبل أن أشرع في الاستحمام.. مع كل قطعة ملابس أخلعها كنت أخلع معها جزءًا من مشكلات يومي حتى صرتُ خالية من المشكلات وصرتُ أيضًا.. عارية.

المياه تسيل من فوق رأسي بليونة شديدة قبل أن تداعب حلمتي صدري بحسن نية.

نظرتُ إلى سارة عند تلك النقطة.. أدركتُ أين توقفت.. تدرج وجهها بحمرة الخجل.. عدت أكمل:

خرجت بعدها أنظف ما أسقطه عم سيد من طعام على الأرض، ثم ساعدته في النهوض وإسكانه الفراش.. تركته نائمًا كطفلٍ، تتحرك شفتاه، تهمسان من روح معذبة، وفاء لأمي.. كم أحب إخلاصك عم سيد!

بلا مقدمات تركز انتباهي على شيء يدور داخل فمي.. لا أعرف ما هو أو كيف دخل.. بصقت بقوة في الهواء.. خرجت ذبابة سوداء قبيحة راحت تدور حول وجهي بطريقة مخيفة.. يمكنني رؤية عيونها الكبيرة..حاولت أن أضربها.. أفلتت أول مرة لكن مع ضربتي الثانية التي أصابتها سقطت على حجري ميتة.. نفضتها، ثم دخلتُ بعد ذلك إلى غرفتي تاركة جسدي يختفي تحت كومة من البطاطين.. ظللتُ بعدها بضع دقائق مستيقظة أنظر إلى السقف الذي أطبق عليَّ فجأة.. روحي تنغمس في مستنقع موحل ثم تخرج منه بين الحين والآخر، كان هذا نومي، الذي امتلأ بأحلام مزعجة اختلط فيها وجه القط الأسود بوجه الذبابة وقرون الشيطان.. من قال إن الشيطان ليس أسود اللون وبدون قرون؟!

شيء غريب لمس صدري.. شيء أشبه بالفم الجائع يلعق عنقي.. مددتُ يدي بحركة لا إرادية أزيح ما عليَّ، وأنا أستيقظ مذعورة حين رأيته .. شيطان قبيح الملامح يقف فوق رأسي ومن خلفه تتصاعد أدخنة بيضاء تبتلع كل أثاث الغرفة.

ربما قلبي توقَّف للحظات.. لساني تجمد في مكانه، لكني في النهاية صرختُ.. صرخة واحدة سقطتُ بعدها شبه نائمة.. كنتُ أشعر بما يجري من حولي، لكني عاجزة عن المقاومة أو الحركة..

يداه الخشنتان راحتا تعبثان بجسدي وتنتهكان كل حرماتي.. شعرت بلسانه يلعق لحمي ويطبع قبلاته فوق كل بقعة و....

أغلقت المذكرة عند هذا الحد، لا يمكنني أن أقرأ المزيد.. نظرت إليها بشفقة.. انكمشت في المقعد..

مددتُ يدي ومسحت دمعة صغيرة سالت فوق خدها.. أمسكت يدي واحتضنت كفي.. قبلتُها عند جبهتها، فتضرج وجهها بحمرة الخجل ونهضت مذعورة.. قالت بارتباك:

- أنا داخله أوضتي.. تصبح على خير.

رددتُ عليها السلام، ثم افترشت كنبة ضخمة تتوسط الصالة.. ألمحها بعين نصف مغلقة تتجه نحو غرفتها.. هناك ما تظن أنه ينتظرها.. صدقيني لو كان الأمر بيدي لمزقت شيطانك الملعون أو.. لاحتويتك بين ذراعيَّ.

* * *

الفصل الرابع

شعرت بالألم عند قدوم الصباح بعد أن تسلل نوره إليّ من خلال ستائر النافذة الرمادية.. رأسي ينتفض مع كل نبضة من نبضات قلبي.. كنت ثاني من استيقظ.. المركز الأول من نصيب سارة التي كانت في المطبخ تعد الفطور، بينما نور الشمس الصباحية يغمرها من وراء نافذة المنور ذات الضلفة المكسورة.. كانت ترتدي ثوبًا منزليًّا عليه ورود صفراء صغيرة.. ألقيتُ عليها سلامًا سريعًا، وأنا أُخبرها بأنني سأخرج.. حاولت إبقائي حتى نتناول معًا الفطور لكنني رفضتُ، ثم غادرت دون أن أعطيها الفرصة لتلح في الطلب أكثر.. لم أنسَ أن أبلغها توصيل سلامي إلى الحج سيد

- حاجة أخيرة المرة الجاية اللي تشوفي فيه الشيطان.. اتصلي بيا فورًا وهتلاقيني عندك.

توجهت بعد ذلك إلى منزلي مباشرة سيرًا على قدمي..

أمام المنزل رأيت صفوت في انتظاري.. تلافيته وفتحت الباب.. استبقني قائلًا بصرامة:

- كنت فين إمبارح؟

- فيه مشكلة؟

نظر في عيني وإلى الضمادة التي تحيط برأسي:

- نتكلم جوه أحسن.

في الداخل دار بنظره في الأرجاء.. أشعل سيجارة.. تجاوزت واجب الضيافة.. قلت:

- بقينا جوا.. خير؟

جلس دون استئذان في مواجهتي:

- أنا عارف إنك متضايق مننا بسبب المرة اللي فاتت ومقدر اللي أنت فيه.. لكن صدقني في شغلنا بنشوف بلاوي مش ممكن تتصورها.

أومأت برأسي وأنا أجلس في مواجهته.. يحب التكلم بصيغة الجمع يمكنني الآن أن أدرك أنه شخصية مغرورة معتدة بنفسها.. استطرد:

- اللي قتل أسرتك مش أول مرة يقتل.. الطب الشرعي تقريره أفاد إن زوجتك وبنتك كل واحدة منهم إتلقت تلات طلقات، اتنين في الصدر وواحدة في الرأس.. نفس السلاح ونفس الأسلوب إتكرر في أكتر من جريمة.

جززت على أسناني عندما سمعت ذلك، ورغبت في اعتصار

عنقه.. عنقه يبدو كفرع شجرة مائل يحتاج لقصه.. سحب نفسًا جديدًا من السيجارة، ونفثه حين راح يكمل:

- قاتل.. مبيهزرش.. الشرطة بتحاول توصل له من فترة طويلة.. أخر جريمة ارتكبها من حوالي سنتين.. دخل على فيلا دكتور مشهور.. قتل مراته وكان هيقتل الدكتور لولا ستر ربنا.. الدكتور كان بيحتفظ بمسدس.. ضرب عليه نار لكنه قدر يهرب.

- قاتل.. ليه.. ده زوجتي ست بسيطة جدًّا.

- ده الشيء اللي إحنا مش عارفين نوصله.. إيه الدافع إنه يرتكب الجرايم دي.. مفيش سرقة.. مفيش انتقام.. مفيش تعذيب أو اغتصاب.. الموضوع كله إنه بيقتل عشان القتل.

قفزت فوقه على حين بغتة، ثم اعتصرت عنقه وأنا أسقطه أرضًا:

- وانتوا بتعملوا إيه.. مش شايفين شغلكوا ليه؟

حاول أن يفلت يدي لكن قبضتي كانت أقوى.. صاح:

- إحنا بنعمل اللي بنقدر عليه.. لو مفكر إن الموضوع سهل تبقى حمار.. مفيش أثر بيسيبه وراه.. مفيش دافع.. مفيش مكان محدد.. مفيش اى حاجة.

كلماته درستها قليلًا في رأسي.. تركت عنقه ونهضت من فوقه.. تحسس عنقه لثوانٍ وهو يسعل بشدة ثم قال وهو ينهض:

- زي ما قلت لك.. أنا مقدر اللي أنت فيه.

صمت لوهلة ثم أردف:

- مية لو سمحت.

أحضرت له زجاجة ماء تجرعها، وأنا أراقبه والماء ينسال بين شدقيه بسرعة.. قال:

- عشان كدا أنا جايلك.. أنا عرفت باللي حصل إمبارح والتلاتة اللي راحو الطوارئ بسببك.

- يبقى أكيد أنت عارف هما عملوا إيه.

- عارف.. ٣ عيال مبرشمين.. بياع الجرايد حكي كل حاجة.. بس خلي بالك المرة الجاية لازم تبلغ.. أنا هعديها المرة دي بس عشان اللي حصلك.

ثم فتح الباب حين هم بالخروج توقف قليلًا وقد تذكر أمرًا ما:

- إنت كنت قلت لي إن القاتل على دراعه وشم تعبان.. مضبوط؟

أومأت برأسي.. فأشار إلى بيده نحو يدي التي يبرز جزءًا من الوشم:

- إيه اللي على دراعك ده؟

غطيت الجزء المكشوف بكم الجاكت بحركة لا إرادية وأنا أقول:

- مفيش.. ده تكتل دموي من مكان إبر الجلوكوز

وضح عليه عدم التصديق لكنه قال:

- على العموم لو فيه أي جديد عندك يا ريت تقوللي.. أنا في صفك متنساش النقطه دي.

وأغلق الباب خلفه بهدوء، تاركًا إياي أرتمي فوق أقرب مقعد حين ضربتني فجأة صورة مخيفة في ظلام عقلي.. امرأة بيضاء تجاوزت سن اليأس بقليل، مقتولة، تخوض في دمائها وقد امتلأ جسدها بالفتحات التي أحدثها سكين ضخم تقطُر منه الدماء، أمسكه في يدي وأنا أصرخ.. بجنون.

* * *

المساء من جديد..

النوم يبرم اتفاقًا عني من طرف واحد ثم يرحل ويتركني أُصارِعُ الأرق.. خرجت حينما لم يعد لديَّ حل آخر..

الشوارع تبتلعني في طريقي للحصول على جرعة أخرى من المعلم زرزور لعلي أجد معها الراحة المفقودة..

أنوار المحلات تتخلل الواجهات الزجاجية فتصنع ألوانًا رائعة.. تذكرت الأيام التي كنتُ أشعر فيها بروعة تلك الألوان.. مضت كما مضى كل شيء آخر جميل.

فيما كنت أجتاز السوق، وجدتُ نفسي أحدق فيه.. في الوجه الذي أشبعته ضربًا والعينين الداكنتين ذاوتي الوميض الخافت.. إنه هو بلا ريب.. كان شك صفوت صحيحًا إذن.. أراه يتابع جزءًا من فليم وثائقي على شاشة كبيرة أمام أحد محلات الأجهزة الكهربائية.. بدا عليه التركيز والانفصال عما يحيطه..

كان الفيلم يصور رجلًا معصوب العينين، عاري الجذع، يرتدي بنطالًا مصنوعًا من الخيش، ويُقتاد إلى مذبح حجري مصقول تحيط به أربعة أعمدة قصيرة اشتعلت فوقها شموع ضخمة.. كان الرجل يملأ جسده بالوشوم المخيفة والذي لسبب ما يتم محاكمته..

تعاقبت بعد ذلك سلسلة من المشاهد بالأبيض والأسود.. يتم اقتلاع لسان الرجل من جذوره قبل أن يتم قطع رأسه ثم غرزه فوق حربة خشبية.. أردت أن أشيح بنظري لكنني لم أقدر..

يستمر الفيلم.. يأتي رجال ونساء ملطخو الوجوه بالدماء، ليحملوا الجثة ثم يضعوها داخل تابوت أسود، لتتعالى بعد ذلك موسيقى جنائزية تقبض الروح.

أحسست برعشة مشئومة حين شاهدت ذلك..

حولت نظري نحو القاتل الذي مشى بعدما بصق على الأرض..

تتبعته بحذر.. شديد.

كان يسير وسط الحشود بكل اطمئنان وراحة، بالرغم من ذلك يبدو مُتعبًا مريضًا.. أستطيع أن أرى ارتجافة ساقه واهتزاز يده.. ماذا أفعل؟ هل أنقض عليه وأقتله وسط الجميع.

شَكٌّ تنبُت بذرته فجأة داخل صدري، ثم تستطيل إلى شجرة عظيمة الفروع.. ربما لا يكون هو.. فجأة صارت كل الوجوه تشبهه.. كل العيون هي عيناه..

كاد أن يغيب عن نظري..

توقَّف أمام محل للمشغولات الفضية.. أشعل سيجارة وأخذ نفسًا طويلًا مستمتعًا بالدفء الذي دخل رئتيه.. حين انتهاء السيجارة كان قد صار خارج السوق.. سحبت سكينًا من أحد الباعة الجائلين ونقدته ثمنه.. أخفيته داخل كم معطفي..

مر أمام النافورة المركزية.. الماء يخرج منها مشكِّلًا لوحة بديعة، جذبت انتباهه.. توقف أمامها شاردًا.. تساءلت بيني وبين نفسي: فيم يفكر؟ خرج من شروده حين التقطت أذنه سرينة سيارة شرطة..عاد وأكمل طريقه بعد برهة قصيرة.. توغَّل وسط حوارٍ ضيقة.. حاولت أن أُبقي على مسافة غير ملحوظة بيني وبينه .. الشارع ضيق ولا يسير فيه غيرنا.. شددت قبضتي على السكين.. طعنة واحدة وستنهي الأمر.. فيما كنتُ أقتربُ منه خفف مشيته قليلًا.. مددتُ السكين نحوه ببطء.. راح قلبي ينبض بسرعة بالغة.. قبل أن أطعنه تعثرت بشيء ما قذفني في

الهواء، ثم سقطت على وجهي، بينما أفلتت السكين من يدي وكادت معدتي أن تصبح مستقرا لها..

ظهر مهاجمي من الخلف.. كان على ما يبدو يتتبعني دون أن أشعر.. قدمه التي وضعها في طريقي هي ما أسقطتني.. بدا مفتول العضلات.. حاولت تبيُّن ملامحه.. لم يعطِني الفرصة.. جثم فوقي بسرعة هائلة.. شعرتُ أن ظهري على وشك أن ينقصم.. التصق وجهي بالأرض وأنا أصرخ من الألم.. أمسك الرجل برأسي ورفعها من فوق الأرض.. حركت رأسي محاولًا إفلات مسكته.. قبل أن أتمكن من استيعاب المزيد ضرب رأسي في الأرض بقوة ساحقة.. شعرت بهدير العظام داخل أذني، بعدها تغلغل الصمت وعمَّ الظلام كل شيء.

* * *

استعدتُ وعيي مع ألم حادٍّ في رأسي..

كنتُ في مكان مظلم ظلامًا دامسًا وصمت تامٌّ يلف المكان.. أحرك أطرافي بصعوبة.. شعرت ببرودة شديدة في جسدي.. أشم رائحة خشبية من حوالي.. رحت أتنفس بصعوبة وكأن الهواء يحاول الفرار مني..

لم أفهم في البداية ما هذا قبل أن تنكشف الحقيقة أمامي.. أنا داخل تابوت خشبي.

صرخت بأعلى صوتي.. الغضب يشعلني كانفجار بركاني.. أتوعد من فعل بي ذلك بأشد الأفاعيل، ثم تحول توعدي وغضبي إلى طلب، فتوسل، فبكاء..

قدرتي على الاحتمال انهارت.. بكيت.. لقد دفنت حيا.. سأموت مختنقا.. وحيدا.. هناك من اخبرني يوما أن الموت هو بداية لحياة أخرى سرمدية.. استكنت تماما في مكاني.. أغمضت عيني واستسلمت للنهاية علها تأتيني سريعا.. دقات قلبي اسمعها بوضوح وهي تهدئ من إيقاعها المضطرب.. أحسست ببرودة خفيفة تأتى من أعلى.. نسمة هواء ناعمة متسللة..توترت من جديد.. رحت أتحسس سقف التابوت بدقة.. سرعان ما عثرت عليها.. فتحة صغيرة بحجم قبضة طفل صغير.. أنا لست مدفونا كما تخيلت..

رحت اضرب السقف بعنف على أمل أن افتحه.. تستجيب أخشابه لضرباتي.. أرى آثار المسامير وهى تغادر مستقرها.. الوشم يزحف تحت جلدي وقد استفاق من جموده أخيرا.. ضربه واحده بعد ذلك وطار السقف في الهواء.. ظهرت نجوم الليل كقطع ماسية وسط رداء الليل الأسود.. ابتلعت كل هواء الدنيا دفعه واحدة..

قفزت خارج التابوت.. تلفت حولي جيدا وأنا التهم كل الهواء الذي من حولي.. بجوار قدمي رأيت التابوت الخشبي الذي كنت بداخله وأمامي مزرعة حيوانية تحت الإنشاء، وفى موجهتها رأيت فراغ هائل هو الامتداد الطبيعي للطريق الدولي السريع..

هناك كلمة واحدة يمكنها أن تصف ما اشعر به.. في الحقيقة أنـا لا اعرف ما هي.

* * *

الفصل الخامس

حين وصلتُ البيت ألقيتُ نفسي على أول مقعد.. تحسست مكان الوشم للمرة الألف.. العروق كانت بارزة لتشكل هذا الوشم المخيف..

معلوماتي عن الوشوم تكاد تكون معدومة.. لدي كره غير عادي نحو الوشوم بصفة عامة، ونحو من يضعها بصفة خاصة.. ربما أجد معلومة مفيدة على شبكة الإنترنت..

صنعت كوب شاي ووضعته أمامي حين جلست أمام الكمبيوتر أتنقل بين المواقع والمنتديات..

بين الحين والآخر كنت أرشف رشفة من الشاي.. في النهاية نسيت وجوده تمامًا.. استطعت بعد تمحيص أن أستخلص المعلومات الآتية: الوشم هو شكل من أشكال التعديل الجسدي ويتم بوضع علامة ثابتة في الجسم وذلك بغرز الجلد بالإبر، ثم وضع الصبغ عن طريق هذه الفتحات والجروح ليبقى داخل الجلد ولا يزول.. يعتبر الوشم على

جسم الإنسان نوعًا من الزخرفة، بينما على الحيوان يكون لأغراض تحديد الهوية أو المالك لهذا الحيوان.. ويختلف الوشم حسب الطقوس الحياتية والدينية، ويختلف باختلاف الزمان والمكان والثقافة.. ويُستخدمُ أحيانًا كتعويذة ضد السحر، الحسد، الموت، أو لطرد الأرواح الشريرة.. هناك ٥ أنواع من الوشوم:

- الوشم الجرحي ويُسمى أيضًا الوشم الطبيعي.. وهو الوشم الذي ينتج عن الإصابة في حوادث الطرق، وأكثر الذين يُصابون بهذا النوع من الوشم هم عمال المناجم، فعندما يُصاب أحدهم بجرح يدخل الغبار إلى داخل الجرح ويترك أثرًا واضحًا يشبه الوشم، أو عندما يسقط شخص ما على الأسفلت ويحتكُّ جزء من جسده بالأسفلت يترك أثرًا يشبه الوشم، ومن الصعب إزالة هذا النوع من الوشوم.

- وشم الهواة والوشم الاحترافي.. وشم الهواة يُرسم بواسطة الشخص نفسه أو أحد الأصدقاء، بينما الوشم الاحترافي فيرسم بواسطة فنيين متخصصين في الوشم، ويتميز بوضوح رسمته وحدتها.

- الوشم التجميلي.. وهذا النوع يعتبر شكلًا من أشكال مواد التجميل الدائم لتغطية العيوب وتغيير لون الجلد وتحديد الحواجب والشفاه والعيون وهذا النوع منتشر في الأوساط الفنية والرياضية وميسوري الحال.

- الوشم الزخرفي.. وهو منتشر في أوساط الأشخاص الذين يؤدون عروضًا غريبة ومخيفة في السيرك.

- الوشم الطبي.. ويتم هذا النوع من الوشم لتحديد الموضع في حالة العلاج الإشعاعي، أو تلوين الجلد في حالات الأمراض الجلدية كالبهاق.

تراجعت في مقعدي..

الصداع يضربني.. أدركتُ فجأة أن العرق يغمرني.. تحسست جرح رأسي.. كان قد اندمل بلا أثر.. لا أجد تفسيرًا لذلك أو تصنيفًا لهذا الشيء الغريب الذي يلف ذراعي.. الأقرب أنه تعويذة ما انتقلت لي.. شر مجهول يحاول أن يستولي على روحي.. أشعر بذلك حتى وإن بدا كحمل وديع.

أشعلتُ سيجارة أخيرة رحتُ ألتهمُها في بطء.. حانت مني التفاتة نحو ما تبقى في المحقن من الخليط الذي صنعته قبل أمس.. هناك أريد وهناك ما لا أريد..

عقلي لا يكف عن استدعاء مشهد أمينة وثلاث رصاصات تخترقها.. يقتلني هذا آلاف المرات..

أحتاج إلى الخليط بشدة.. الشيء الذي يجتاح كياني يطلبه كذلك.. ينتظر الإغماءة القادمة بوحشية قطيع من الذئاب..

أطفأتُ السيجارة في كوب الشاي، ثم تناولت المحقن.. نظرت إليه لثوانٍ.. قليل من التأمل في محتواه لن يضر.. أغمده في عنقي كطعنة

محارب صليبي.. قنبلة تنفجر داخل رأسي.. السائل يشعل النيران داخل خلاياي، فاتحًا الباب لشيطان قديم يقتحم حياتي ويبعثرها على مسافة ألف ميل.. حين استوطن الظلام داخلي.

* * *

من أنا ؟

كان هذا هو السؤال الذي بلا إجابة..

صوت جرس الباب يتسلل على استحياء..

نهضت عاري الجذع من فوق الفراش.. لا أذكر متى خلعت ثيابي.. كنت أترنح كالممسوس غير قادر على تمييز ما حولي.. كانت مسالة وقت حتى ارتطمت قدمي بطرف مقعد غير ظاهر بالنسبة لي، لأسقط لاعنًا كل ما هو حي..

أمام الباب وبعد سبة بذيئة أطلقتُها كانت تقف أمامي وفي عينيها رغبة لا يطفئها غير ملك الموت.. آلهة من جبل الأوليمب[1]، نسيت

---

(١) (جبل أوليمبوس أو الأوليمب، أعلى جبل في اليونان حيث يبلغ ٢،٩١٩ مترًا أو ٩،٥٧٠ قدمًا ويغطيه الثلج أغلب فصول السنة وكان يعتبر مقدسًا في الميثولوجيا الإغريقية القديمة.. اعتقد الإغريق أن آلهتهم تعيش فوق جبل أوليمبوس في منطقة تثاليا والذي كانت تحرسه ربات الفصول وفوق هذا الجبل يقع قصر كبير الآلهة زيوس والذي كان تعقد فيه اجتماعات الآلهة بناء على دعوة من زيوس.. حيث كان المقر لكبير الآلهة زيوس بالإضافة إلى عدد آخر =

ربما ملابسها، تدخل بدون استئذان وهي تهز كـل قطعـة لحـم طريـة في جسدها..

انتقت مقعدًا وثيرًا، وفردت فوقـه جـسدها، حـين نـاولتني ورقـه صغيرة مطوية بها عنوان وصورة لامرأة سبق أن رأيتها مقتولة في ظلماتي الأخيرة..

تخبرني بشيء ما، بينما صندوقها الخلفي المصنوع من القشدة البلديـة يشغل كل تفكيري..

أخبرتها بالموافقة على ما هو مطلوب.. سوف أنفذ بلا شك.. سوف أقتل..

مَنْ صاحب القرار؟ مَنْ صار يتحدث؟ أنا أم ذلـك الظـلام الـذي استوطن بداخلي.. مات تساؤلي سريعًـا.. صرت عبـدًا لـشيء مجهـول.. الوحش نهض الآن وكشر عن أنيابه أخيرًا..

اتسعت ابتسامتها الوليدة ثم نهضت من مكانهـا.. اسـتبقتني نحـو غرفة النوم.. تابعت مشيتها الوئيدة.. انتظرت دقائق ثم دخلت خلفها..

كانت تقف أمام السرير شبة عارية وأسفل منها فستانها الـشفاف.. فقط ترتدي سروالًا داخليًا أحمر اللون مصنوعًا من خيوط رفيعة، وتلف

=من الآلهـة مثـل هـيرا، أبوللـو، أرتمـيس، آرس، هـرمس، آثينـا، بوسـيدون، أفروديت.)

ذراعيها حول صدرها الكبير، فيما ينسدل شعرها الكستنائي حول رأسها.. تبدو بالنسبة لي أقرب إلى راقصة تعرٍ.. إكرامية إضافية فوق رزمة الأموال التي ألقتها أمامي مقابل أن أقتل..

فتحت ذراعيها ببط فكشفت عن أجمل صدر رأيته في حياتي.. تمنيت على الفور أن أقترب منها.. ابتسمت ثم أدارت نفسها نحو الفراش.. انتشيت كثيرًا لرؤية معالم أنوثتها..

حملتها بين ذراعي قبل أن تلقي بنفسها فوق السرير.. تذوقت شفتيها.. لو كان للسكر طعم آخر لكان هذا هو.. ثم غبنا في عالم آخر..

المتعة الرخيصة مثل الحياة القصيرة، كلاهما ينزوي سريعًا.. هكذا انتهيت منها، وقد انطفأت رغبتي، شاعرًا بالاشمئزاز وبالرغبة في القيء.

ارتديت ملابسي على عجل، تاركًا إياها ترتجف من النشوة..

سيارة سوداء كانت تنتظرني في الخارج يقودها سائق، جامد الملامح، عابس الوجه، ضخم الجثة..

ألقيتُ نفسي داخل السيارة لتغوص بي وسط حوارٍ وأزقة مظلمة.. متاهة بلا أولٍ أو آخر تحوي داخلها أشباحًا ممسوخة.. وشياطين ضائعة تبحث عن رفيق.

* * *

الوقت ما زال ليلًا..

توقفت بي السيارة أمام محل ملابس موجود بمنطقة شبة راقية قليلة السكان، لا أذكر متى زرت هذا المحل من قبل.. لكنني أعرفه.. أعرف أركانه ومداخله.. وأعرف صاحبته.

السائق يقول باقتضاب:

- عارف طبعا اللي هتعمله.

لم أُجِبْهُ.. رميته بنظرة بلا معنى ونزلت..

صاحبة المحل تستقبلني بابتسامة واسعة.. كانت امرأة جميلة في منتصف الثلاثينيات من العمر وجهها ملائكي، طويلة القامة، وترتدي فستانًا مصنوعًا من الصوف الناعم يبرز جمال قدها الملفوف..

تخبرني أنها كانت على وشك الإغلاق، صوتها كان مكتومًا، وتتحدث بطريقة راقية جدًّا مثل مغنية أوبرا تقف على المسرح.

أتحين منها فرصة وأتركها تخرج لي بعض بضاعتها.. تدير ظهرها نحوي، فانقض عليها بشراسة معتصرًا عنقها الرفيع.. صراخها يخرج مكتومًا رغمًا عنها وهي تضرب بيدها في الهواء، باحثة عن نجاة..

ربما لا تستحقي القتل.. أكره نفسي على ما أفعله بك.. لا تحاولي المقاومة.. إنك تزيدين الأمر سوءًا على نفسك..

تضربني بعصا حديدية في وجهي فترتخي قبضتي من حولها، ثم

تختبئ أسفل مقعد ضخم.. تظن أنها يمكنها النجاة.. صراخها بلا فائدة بعد أن قمت بإغلاق الأبواب بإحكام..

أخرجت خنجرًا يشبه حرف "T" متى كان لدي مثل هذا الخنجر الغريب؟! لا أذكر..

أحاصرها حتى تخرج من مخبئها.. تصرخ وتطوح بالعصا الحديدية من جديد في وجهي، فيفلت الخنجر..

هل تعتقدين أن الخناجر هي كل ما لدي؟! ما سبق كان مجرد مداعبة.. أنت مثيرة للشفقة..يستمر الكلام يخرج مني بلا توقف أو خوف، وأستمر في لست القائل أو الفاعل..

أخرجت سكينًا يبلغ طوله ٩ بوصات.. تتوسل لي من أجل حياتها وهي تطوح بالعصا في الهواء.. حقيقة لا أفهمك.

تحملت ضربتها وقبضت على العصا الحديدية، ثم طعنتها بكل قوتي حتى أخترق السكين ظهرها، ثم شققت بطنها بالطول.. شهقت من الألم الممتزج بالذعر، وهي ترى أمعاءها تتدفق للخارج.. ترتجف رجفة خروج الروح.. أدرت عنقها بحركة عكسية تهشمت على إثرها فقراتها العنقية، قبل أن تخرج فقرة من مكانها وتخترق اللحم.. سائل أصفر كريه الرائحة يسيل من بين ساقيها فيختلط بدمائها ويلوث حذائي..

ألقيتها أرضًا بقسوة، ثم بصقتُ على وجهها الملائكي بحقد..

جلست بجوارها مسندًا رأسي إلى الحائط، أفتش عن علبة سجائري داخل جيب قميصي، الذي بات ملتصقًا بجسدي من كثرة العرق..

عثرت على سيجارة وحيدة أعطتني إحساسًا بالراحة حتى من قبل أن أنفثَ دخانها فوق الجثة، التي اعتدلت بجواري فجأة تطلب مني أنفاسًا مجانية.. أجبتها:

- آسف.. مبحبش أدي سجايري لحد.

ثم حدقت في سقف الحجرة ببلاهة.. ظهرت صورة هائلة في سقف المحل للشاب الزنجي وهو ينظر لي بعنين دمويتين.. نادني:

- ابيزيم.

ثم راح الظلام يحيط بي تدريجيًّا حتى ابتلعني داخله.

* * *

فجأة فتحت عيني..

كابوس.. الحمد لله.. مجرد كابوس.. آه.. كابوس

لوهلة هذا ما اعتقدته أو ما تمنيته إذا ما شئنا الدقة، لكن نظرة إلى جثة المرأة التي تنزف بجواري على الأرض، والسكين الذي يقطر في يدي جعلني أتجمد في مكاني كشجرة وحيدة في غابة مقفرة تنتظر خروج الروح..

أدرك الآن أنني مستيقظ وفي أرض الواقع.. لا يمكن لعقلي أو لروحي أن يستوعبا الموقف، الهاتف يرن.. قنبلة صوتية تخرجني من حالتي للحظات.. لكن ليس هذا وقته.. أغلقته وأنا أنظر إلى اسم المتصل.. كانت سارة.. ليس هذا وقته مرة أخرى.

العرق يتصبب مني.. رباه.. جثة المرأة بدت مخيفة جدًّا عندما نظرت إليها مرة أخرى.. لسانها كان مقطوعًا وملقًى فوق صدرها.. متى قطعت هذا اللسان.. أريد أن أفرغ معدتي.. أخرجت كل ما في جوفي على الأرض دفعة واحدة حتى كادت أن تخرج معها روحي.. العصارة الحارة يتسرب القليل منها من خلال فتحتي أنفي.

ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا ألهث.. لا بد أن أغادر.. لا بد.

نحو المدخل المظلم كانت قدمي ترتجفان.. فتحت الباب بحرص حتى أتأكد من أنه لا يراني أحد.. برودة الليلة والوقت الميت جعل المنطقة أشبه بالمقابر.. أثناء خروجي اصطدمت بكل ما في طريقي.. جريت في ذعر ليبتلعني بعد ذلك الظلام..

مرة أخرى.

* * *

الفصل السادس

عندما عدتُ كان صوت ضربات قلبي عاليًا جدًا حتى أنني لم أكـن أستطيعُ سماع أي شيء آخر..

توجهت نحو غرفة النـوم.. آثـار معركـة الفـراش أمـس مـا تـزال حاضرة.. رائحة المرأة وعرقها ما يزلان باقيين.. كنت ما زلت أطمـح في أن يكون ما حدث مجرد وهم..

وضعت نفسي أسفل الدش البارد.. سـاعدني ذلـك قلـيلًا عـلى أن أتمالك ما بقي من أعصابي.

مكثـت بعـد ذلـك يـومين في المنـزل الـذي أغلقـت جميـع نوافـذه وأطفأت أنواره..

قبعت بالداخل بلا حرك أحدق في الظلام الذي يحيط بي لـساعات طويلة.. لن ترهبني ظلمة القبر بعد ذلك..

هناك من يحدثني وأحدثه.. أسمع أصواتًا كثيرة من حـولي تـصرخ

أحيانًا وتضحك أحيانًا أخرى.. مناقشات عديدة دارت بيني وبينهم حتى وصل الأمر إلى وقوع مشاجرة عنيفة بيننا..

أدركت بعد ذلك أن ما حدث قد حدث، وصرت وحشًا حقيقيًا.. حان الوقت لأن أعترف.. كوني مستقيمًا طوال حياتي لا يعني أن تعاملني الحياة بعدالة.. فقط هي سحقتني وقتما شاءت.. لعنتني وقتما شاءت.. وحان الوقت لأن أصب لعنتي على الآخرين.

في اليوم السادس كما في اليوم الذي خلق فيه الله آدم،[1] قررت أن أخرج بعدما أصبح بيني وبين الجنون شعرة.. أو ربما أكون قد تجاوزتها.

رزمة الأموال كانت قابعة في مكانها لم تتزحزح.. انتزعت منها حفنة ثم دسستها في جيبي..

الأصوات تطلب مني البقاء.. صرخت فيها بأن تخرس هذه المرة.. تبادلت معها شجارًا بالأيدي والأقدام حتى استسلمت..

خرجت مُتعَبًا..

كان الوقت ظهرًا..

---

(١) تزعم التوراة أن الله – تعالى – خلق السموات والأرض في ستة أيام؛ خلق في اليوم الأول النور، وفي اليوم الثاني السماء، وفي اليوم الثالث الأرض والبحار، وفي اليوم الرابع القمر والنجوم، وفي اليوم الخامس الطيور والأسماك، وفي اليوم السادس الكائنات الحية؛ الإنسان والحيوانات والبهائم والوحوش والزواحف، ثم استراح في اليوم السابع، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا

لم أملك سوى أن أذهب إليه..

إلى الشيخ (أبو الورد).. كان يسكن في منطقة راقية جدا.. نظيفة جدًّا.. يمكنك أن تسقط الطعام على الأرض وتلتقطه مره أخرى متجاوزًا قاعدة الخمس ثوانٍ دون أن يتلوث.(1)

أمام مدخل البرج الذي يعيش فيه توقفت أتأمل مدخله الرخامي الواسع وقد تلألأت جدرانه وأرضيته، لم أكد أمد قدمي للدخل حتى خرج لي شاب من العدم، صلبًا كأهل الصعيد، يرتدي جلبابًا فضفاضًا، وله شعر قصير مجعد كالخواتم الصغيرة:

- أي خدمة يا أستاذ؟

قالها بلهجة ترجع جذورها إلى صعيد مصر.

- الشيخ أبو الورد.

رماني بنظرة بها بعض الاستخفاف.

- الدور التاني.

ثم انسلَّ داخل غرفة صغيرة بجوار السلم لمحت من بابها الموارب قدم فتاة سمراء، تابعت عريها حتى اختفت.

---

(1) (قاعدة الخمس ثوانٍ عبارة عن حكاية رائجة تتعلق بأكل الطعام الذي سقط على الأرض، وأصل هذه القاعدة غير معروف.. تقول القاعدة: إنه إن سقط طعام على الأرض، فقد يكون من الآمن أكله إن تم التقاطه ثانية في غضون خمس ثوان).

صعدت درجات السلم الواسعة بعد أن اقشعرَّ جسدي من البرودة الغريبة التي تشع منها..

ضغطت جرس الباب الذي صوصو كالعصفور المجروح..

- أهلًا وسهلًا.

نفس الشاب الذي رأيته في الأسفل يفتح لي الباب، لكنه يبدو طريًّا هذه المرة.. ابتسم حين لاحظ اندهاشي:

- واضح إنك قابلت أخويا (صديق).. إتفضل.

لم أُرِدْ إخباره أن جزءًا كبيرًا من اندهاشي بسبب لهجته التي تقترب من صوت امرأة على فراش زوجها.

قادني إلى صالة واسعة فاخرة الأثاث تنبعث منها موسيقى هادئة..

اتخذت مكاني داخل مقعد جلدي مريح ابتلعني في لحظة..

عاد الشاب الذي علمت أن اسمه (فوزي) يجلس على كرسي خشبي بلا مسند أمام الباب في انتظار الطارق الجديد بعد أن أخذ بياناتي وأعطاها سيدة في أواخر العمر، تحيط شعرها بمنديل أحمر، تجلس على مكتب متوسط الحجم، أمامها كراسة صغيرة وقلم حبر رخيص الثمن، دونت بها على ما أعتقد أنها بياناتي.. حدقت بي مرة ثم انشغلت بعد ذلك بمحادثة تليفونية طويلة قامت خلالها بخلع وارتداء نظارتها السميكة عدة مرات بلا سبب.

- أيوه.. تمام .. امممم.. حاضر.

كان هذا كل ما يصلني من محادثتها..

و دون أن أحرك رأسي درت بعيني داخل محيط الصالة.. كانت تمتلئ بالستائر الحريرية، وبعكس ما كنت أتوقع لم تكن هناك سبح أو أبخرة تتصاعد في الهواء.. هناك رائحة نفاذة أقرب إلى مزيج الروائح الموجودة بصالونات الكوافير.. أيضًا هناك لوحة بالأبيض والأسود لشجرة خالية الأوراق تحتها كلمة إهداء لم أستطع تمييز صاحبه.

الأرض مكسوة بسجادة عتيقة يبدو أنها فارسية الصنع..

في مواجهتي فتاة في مقتبل العمر زائغة النظرات تتمايل على نحو غريب، على يمينها على ما يبدو أنه والدها وعلى يسارها والدتها.. كان الأب ينظر حوله بقلق كمن يخشى الفضيحة وهو يحيطها بذراعيه كطفلة صغيرة، بينما توجد بقايا دموع جافة فوق عين الأم التي تباينت نظراتها بين الخوف والترقب.

نهضت السكرتيرة العجوز وهي تتمهل في خطاها ثم قادتهم نحو غرفة بابها صغير وعادت إلى مكانها ربما لتنتظر ملاك الموت..

أراها تختلس لي النظر من أسفل عدستي نظارتها.. لسبب ما صرت أجذب انتباهها..

تصنعت أني لا ألاحظها، ثم أخرجت سيجارة دخنتها بعصبية.

- تحب تشرب حاجة؟

قالها فوزي فشكرته بعد أن طلبتُ كوب شاي.. دقائق ثم عاد وأحضره أمامي تتصاعد منه الأبخرة المعطرة برائحة النعناع.

تابعت بعد ذلك الفتاة تخرج وهو تستند على كتف والدها مغمضة العينين وقد أغرق العرق صدرها ووجهها..

جاءتني السكرتيرة هذه المرة ثم حيتني تحية مقتضبة، واقتادتني معها..

حين دخلت استطعت أن أشم رائحة البخور التي تتصاعد من مبخرة نحاسية أمام رجل كاد وجهه أن يختفي داخل لحيته البيضاء الطويلة.. الشيخ أبو الورد.. ألقيت عليه سلامًا بلا معنى

- إتفضل يا فتحي.

جلست في مواجهته حين رن صوت الباب وهو يوصد بعد أن أغلقته السكرتيرة خلفها.

- خير.. تحت أمرك.

- ده.

وكشفت له ساعدي وأنا أشير للوشم الذي بهت وكاد أن يختفي تحت الجلد.. ضيق عينيه وهو يمسك ساعدي ويقربه منه حتى كاد أن يلامس أرنبة أنفه

أغمض عينيه وبدا يتمتم أدعية ويستدعي قبيلة كاملة من الجن بعد أن أقسم عليه بطلاسم سليمانية وأخرى سلطانية..

حاولت الحفاظ على هدوئي..

الظلام يهبط علينا تدريجيًّا.. بدءًا من الأركان ثم راح يتشعب ببطء كسحابة سوداء راحت تبتلع كل ما في طريقها حتى وصلت إلينا وابتلعتنا..

فتح عينه بقلق حين شعرت ببرودة صقيع تغزو جسمي..

تلفتَ حول نفسه وترك يدي بذعر وهو يتراجع للخلف:

- إيه اللي إنت جبته معاك.. بخ.. بخ.

راح يرددها بلا انقطاع قبل أن يلفح الغرفة ريح قوية أطاحت بنا في الهواء..

اصطدمت بالحائط الذي كاد أن يهشم ظهري تاركًا لي ألف ألم وألم، بينما ارتطم أبو الورد بالمكتبة، فسقط على وجهه، بعد أن تهشمت واجهتها إلى قطع مختلفة الأحجام، أصابته بجروح متفرقة وزرعت شظاياها داخله..

حاولت أن أصرخ منبهًا إياه حين خرج من وسط الظلمة زنجي مطموس الملامح اتجه نحو (أبو الورد) الذي كان يتمرغ في الألم والزجاج..

قبض الزنجي على عنق (أبو الورد) وراح يعتصره في قسوة وصمت..

حاولت أن أنهض.. كنتُ مُكبَّل الحركة بلا سبب.. أرى (أبو الورد) وهو يحاول التخلص من قبضة التي تعتصره لكن الضعف الذي غزا جسده جعله لا يمتلك القوة.. عيناه تتسعان أكثر وأكثر وهو ينظر إلى سقف الغرفة كأنه يتابع روحه وهي تنسحب منه..

أسمع صوت السكرتيرة تصرخ من الخارج مع صوت ضربة قوية على الباب قبل أن يتحطم ويدخل فوزي وهو يحمل عصا حديدية مدببة..

سرى في جسدي تيار كهربائي مفاجئ حين أدركت أن الزنجي اختفى وأنني لم أعد في مكاني، بينما (أبو الورد) ينزف من أنفه بغزارة، وروحه تستعد للخروج من بين الأصابع التي راحت تخنقه بلا رحمة..

أصابعي أنا.

* * *

فوزي يطلق صرخة مرعبة كالهنود الحمر وهو يطوح بالعصا باتجاه رأسي.. ضربة واحدة وستنقلني - بلا شك - إلى عالم آخر.. ابتعدت عنها في آخر لحظة حين صدر منها صوت حاد وهي تمر بجوار عنقي..

طوحت المبخرة في وجه فوزي الذي تفادها في سرعة رد فعل غير عادية، وهو يستعد لضربته الثانية التي بالتأكيد ما كانت لتخطئني..

رميت نفسي في الهواء، وانطلقت يطاردني فوزي الذي سمعت صوت سقوطه بعدما اختل توازنه فوق السلم الرخامي..

أمام الباب قابلت ضوء الشمس الذي غشى بصري وكاد أن يجعلني أسقط تحت عربة مسرعة..

تواريت داخل شارع ضيق تراصت على أطرافه أشجار نخيل قصيرة الطول، استندت على إحداها وأنا ألهث..

وكأنها كانت في انتظاري، توقفت أمامي سيارة زرقاء فارهة ذات نوافذ سوداء عاكسة، تخفي مَنْ في داخلها..

الباب الخلفي يُفتح، وصوت رقيق أكثر من الرقة نفسها يقول:

- ادخل.

الهواء الدافئ الذي خرج من وراء الباب صحب معه عطر الدنيا كلها إلى داخل أنفي.. نظرت نحو صاحبة الصوت..آلهة من جبل الأوليمب زرتُ كهفها المحرم منذ عدة ليالٍ.. كانت شقراء هذه المرة.. ملابسها كلها بالأبيض.. تبتسم وهي تمد لي يدًا وتمسك بيدها الأخرى قبعة جميلة ناعمة.. قلتُ بغلظة:

- خير؟

-just come ..You will know every thing

قالتها وأفسحت لي المقعد تاركة أردافها تطبع ختمها فوقه.. جلست بجوارها أبتلع ريقي الذي كاد أن يجف.. أغلقت الباب الذي

فصلنا فورًا عن الخارج.. مكيف الهواء كان محددًا على درجة الحرارة المثالية.. موسيقى هادئة تمامًا تنبعث من كاسيت السيارة وتزيد عزلتنا..

تمالكت أعصابي أخيرًا..

أشارت إلى السائق بأن يسير.. استجاب لأمرها فورًا،

أشعلت سيجارة قبل أن تعطيني إياها لأتذوق أحمر شفتيها عليها..

حاولت - ولو للحظة وجيزة - أن أتخيل ما يدور في عقلها.. قالت وهي تشير نحو نفسها ثم نحوي:

- أنا أماليا وأنت فتحي.

- اسم جميل.. في الأساس اسم لأميرة فرعونية.

ضحكت:

- قليلين اللي يعرفوا المعلومة دي.. واضح إنك مثقف و..

قاطعتها:

- ادخلي في الموضوع.

اندهشتُ من قولي للحظة.. هذه امرأة تعودت أن ينبهر الرجال بجمالها لا أن يكلموها بخشونة.. ساد الصمت لحظات تأملتني فيها.. قالت:

- الناس في المعتاد مبيقدروش يختاروا قدرهم.. لكن بيحاولوا دايمًا إنهم يغيروه.

ثم أخرجت من حقيبتها صورة ومدتها نحوي.. سألتها دون أن أنظر فيها:

- دي إيه؟

- مشكلة.. حلها أنك تقتله.

قالتها وألقت الصورة بين يدي ثم سكتت..نظرت فيها.. كانت صورة لرجل أصلع الوجه اختفت رقبته داخل رأسه من فرط بدانته.. بلا اكتراث قلت:

- كل واحد يحل مشكلاته بنفسه.

حكت أنفها للحظات ثم ابتسمت قائلة في صوت مريب:

- امممم.. طيب.. أنا ممكن أقنعك إن مشكلتنا هي مشكلتك.

ارتعشت أصابعي رغمًا عني.. نظرتُ إليها وطوحت بالصورة في وجهها.

- اللي حصل قبل كدا مش هكرره تاني.

أمسكت ذراعي وتحسست الوشم في انبهار قائلة:

- افهم يا حمار.. اللي بيحصلك ده هبة.. على امتداد السنين قليلين قوي اللي امتلكوا القوة اللي عندك.. إنت تقدر تكون ملك.. إله عايش على الأرض.

صحتُ مُحتدًّا:

- قوة إيه وسنين إيه؟! ابعدوا عنى يا ولاد الكلب!

لم تُعر لما قلتُ اهتمامًا.. اقتربت من وجهي وهمست:

- في كل الأحوال.. مش أنت اللي بتحدد مصيرك.. اللي حوالين دراعك هو اللي بيحدد.

ثم لثمت شفتي وأردفت بصوت كفحيح الأفعى:

- انصاع ليه بمزاجك أحسن.. صدقني

قلت بصوت مختنق وأنا أبتلع جملتها:

- مستحيل أعيش بالطريقة دي.

قالت بإصرار:

- مش بمزاجك.. غصبن عنك.. لو كان فيك خير مكنش اختارك.. أنت إسود من جوه..

رميتها بنظرة غاضبة.. توترت ملامحها..قفزت فوقها فجأة واعتصرت عنقها الذي تداعى كفرع نبات لبلاب بين أصابعي:

- كل ده هينتهي حالًا.

هكذا صحتُ وقد منحني غضبي بعض الطاقة.. السائق يوقف السيارة فجأة.. ارتطمت بزجاج السيارة الجانبي.. صرير حاد يحتك

بأذني.. تيار كهربائي يمر بجسدي من خلال صاعق كهربائي استخدمه السائق.. صرخت من الألم.. فقدت السيطرة على أطرافي.. أماليا تنتهز اللحظة وتتخلص من قبضتي..

تمالكت نفسي وتحملت الألم بعد ان استعدت السيطرة جسدي.. حاولت سحقها بقبضتي.. شحب وجهها واصفرَّ وهي تصرخ بهلع:

- اضربه مرة تانية.. ده مجنون وهيقتلنا.

أطلق السائق شحنة أخرى، تراقصت شرارتها المرعبة وهي تصطدم بعنقي، ثم عاد وطوح قبضته في وجهي.. ضربة قاضية لا ترحم، ألقتني بعيدًا فوق قمة جبل تتراقص عليه فتيات.. عاريات.

* * *

انفجر الضوء في عيني فجأة..

حين استيقظت كنتُ عاريًا تمامًا، داخل حفرة عميقة جدًّا، تتسع لجسدي بالكاد.. فتحة الخروج كانت عالية حتى إنها لتلامس السماء وتعانق النجوم.. رفعت جسمي مستندًا على مرفق واحد.. أسفل مني شعرت بشيء طري تفوح منه رائحة نتنة.. توجس قلبي منه خيفة.. حين استطعت تميزه قفزتُ واقفًا وأنا أصرخ من الرعب.. كانت بقايا جثة إنسان في مرحلة التحلل، ويسيل منها سائل مقزز..

اندفعت بجنون أضربُ الجوانب الحجرية حتى أدْمَتْ قبضتي.. كانت قدمي تدهس في الجثة وتغوص فيها رغمًا عني فتنفجر منها قنابل

من الروائح الكريهة والمواد اللزجة.. أصابني الجنون.. ضربت رأسي في الحائط.. مخي يرتجُّ بالداخل.. سائل دافئ أشعر به يلامس جبهتي.. الدماء تغرق وجهي..

لا بد أن أتمالك أعصابي.. الهلع لن يكون ذا عون الآن.. التقطتُ أنفاسي وأغمضتُ عيني.. تلمست جوانب الحفرة.. هناك آثار لأيدٍ أخرى سبقتني.. هذا يعني أن من ألقاني هنا متأكد من استحالة خروجي.. لكني سأحاول..

حاولت تسلق الحفرة.. فشلت فورًا..شعرت باستحالة أن أستطيع تسلق هذه الجدران الزلقة..لكني تسلقت مرة أخرى.. فشلت أيضًا فورًا مرة أخرى

صرخت بيأس وأنا أنظر نحو فتحة الخروج العالية، التي تشكلت على هيئة خاتم مستدير:

- كفاااااية.

انهارت قواي بغتة، قبل أن أسقط على ركبتي وأنا أرتجف.. احتضنت نفسي كالجنين.. برودة رهيبة أشعر بها.. البرد تحول إلى كيان مادي يجثم فوق جسدي كاتمًا أنفاسي.. ازْرقَّت أناملي.. توقف جسدي عن الارتجاف حين أخذ وعيي يغيب عني.. أتخيل نفسي أسقط وسط نيران متأججة تصل ألسنتها إلى السماء.. هذا هو الدفء الذي أريده..

ألمح خيال شخص يُراقبني من أعلى الحفرة.. يمكنني أن أقسم أن عينيه تشعان بريقًا وتخرجان شررًا..

جاءني صوته غليظًا ومسافرًا من عالم آخر:

- حكاية إبتدت من سنين.. ولازم تنهيها.

حاولتُ أن أرد عليه.. لساني عجز وقد قبضت عليه يد ثلجية وسجنته داخل حلقي..

رحتُ أراقب صاحب الصوت وهو ينزل لي حبلًا طويلًا.. جربت أن أمد يدي وأمسك الحبل.. متأخرًا جدًّا بلا شك..

لم أعد أرى سوى الموت و..

وانتهى كل شيء.

* * *

شهقت من الفزع حين فتحت عيني..

صدري ينتفض بقوة وأنا أنظر إلى ما حولي.. كنتُ في السيارة وفي مواجهتي تجلس أماليا وعلى شفتيها ابتسامة صامتة وتجترع كأسًا تحوي سائلًا شفافًا أصفر اللون..

جروح يدي ورأسي تم تضميدها جيدًا.. أرتدي كامل ملابسي التي فاحت منها رائحة المعطر وقد تم غسلها وكيها بعناية..

ساد صمت طويل إلى أن بدأت أستوعب ما أنا فيه.. أماليا تـأكلني بعينيها قبل أن تمد لي كأسًا مما تشرب:

- اشرب.

قالتها في لا مبالاة مصطنعة..

نظرت نحوها وفي عقلي مئات الأفكار.. ألمح السـائق عـلى مقعـده يراقبني من المرآة الجانبية دون أن يبدو على وجهه أي تعبير أو إحساس.. أعلم أنه متحفز في داخله.. ينتظر فقـط أي بـادرة شر منـي حتـى يعيـد الكَرَّةَ،

تناولت منها الكأس بحذر.. نظرت إلى محتواها المجهول.. تجرعتـه دفعة واحدة.. كريه الطعم والرائحة مثل البول لكنه منحني الدفء.

تحسست كتفي وهي تقول:

- لا بأس عليك.. أنت كويس دلوقتي.

أومأت برأسي.. استطردت:

- أرجوك تقبل أسفي واعتذاري على اللي حصلك.

صمتت تنتظر ردي.. رفعـت إحـدى حاجبيهـا في استفـسار حـين تأخرت.. قلت بعدها، بصوت خرج مبحوحًا:

- اعتذارك مقبول.

ابتسمت في ارتياح وقالت:

- حيث كدا.. وبعد ما صفينا اللي بينا نقدر نكمل اللي كنا بنقوله.

ثم أخرجت ظرفًا منتفخًا من حقيبتها وألقته بين يدي مستطردة:

- دول ٢٠ ألف وفيه ٤٠ مستنينك لما تخلص.. العنوان وكل المعلومات اللي تحتاجه هتلاقيها مكتوبة جوا.

بالنسبة لي لم أكن في حاجة للتفكير.. طريقي يرسم جيدًا في اتجاه الجحيم.. فتحت الظرف لأرى الجنود الحمراء فئة ال ٢٠٠ جنيه.. دستهم في جيبي.. شعرت بفيضان داخل معدتي.. فتحت باب السيارة، ثم ملت خارجها وتقيأت الهراء الأصفر الذي شربته منذ قليل.. قلت حين انتهيت:

- لو إنتي عاوزة رأيي.. إحنا بنعيش في زمن ملعون.

نظرت إليَّ بنظرة باردة محايدة:

- يعني؟

- يعني هاخد ٨٠ كمان.

- اتفقنا.

ثم صافحني الشيطان.

* * *

الفصل السابع

ليل آخر..

يوم آخر.. مدينة أخرى..

لم أكن بحاجة إلى التفكير.. بعد قيادة لمدة ساعتين وصلت إلى العنوان المكتوب.. منزل ريفي يسكن فيه الكاتب هنا وكذلك يعمل..

توقفت أمام باب المنزل، أعالج رتاجه بسرعة وأدخل بهدوء.. أسير في البهو بحذر متنصتًا إلى الأصوات..

وصلت إلى غرفة المكتب.. جوه هادئ وأثاثه فخم يدل على ذوق وثراء صاحبه.. استطعت أن أسمع رنين الهاتف التقليدي.. تناول سماعة الهاتف.. انشغل في حوار هادئ ثم عاد يكمل ما كان يفعل

كان منهمكًا في كتابة موضوع ما، وقد صنع من أسفله كومة صغيرة من الأوراق.. كان رجلًا متوسط العمر، أشيب الشعر، قليل الحجم حتى أنه يكاد أن يختفي داخل المقعد الذي يجلس عليه..

يجـــــب أن أقـــــوم بـــــذلك بـــــشكل هـــــادئ..
سحبت سكيني ذي النصل الملتوي، ثم وضعت يدي فـوق فمـه، حـين قمت بجز عنقه بكل هدوء..

تركته ينازع الموت.. أراقبه بلا أي مشاعر.. الدماء تخرج مـن عنقـه بغزارة.. يحاول منعها بيده وينظر لي بكل رعب وذعر الدنيا.. ثواني، ثـم استكان جسده أخيرًا فوق المكتب جاحظ العينين.. فجأة ارتجافة عنيفـة أحدثها، ثم عاد إلى سكونه.. اعتـدت عـلى تلـك الحركـة.. الارتعاشـة الأخيرة

ارتديتُ قفازًا طبيًّا، ثم شمرت ذراعـه اليمنـى التـي يكتـب بهـا.. سلختُ الجلد من اللحم.. أغمدت أصابعي داخل عينيه، كـان لفقأهمـا صوت مقزز..

أصبحت أكره نفسي..

بحثتُ عن الأقلام التي يكتب بهـا، ثـم جمعتهـا في حزمـة واحـده، وأغمدتها داخل مؤخرتـه.. اللعنـة ألا توجـد طريقـة أخـرى لإيـصال الرسالة إلى كل من تسول له نفسه مهاجمة رب عملي.

الصداع يضربني مـن جديـد.. أخرجـت حفنـة برشـام وهرسـتها بأصابعي ثم استنشقتها.. الرؤية تهتزُّ لثوانٍ أمام عيني.. أتخيل من قتلتـه يخرج الأقلام من مؤخرته ويكمل ما كان يكتبه:

- خليك محترم وارجع ميت تاني.. مش كل واحد أقتله يعمل معايا كدا.

لم تكن تلك هي مهمتي الثانية ربما كانت الرابعة أو الخامسة.. توقفت عن العدِّ منذ فترة طويلة.. صرت أتدرج في كل شيء، من سيئ إلى أسوأ، ومن حقير إلى أحقر..

كان ذلك بعد أن جاءني اتصال من الرائد صفوت يطلب إليَّ الحضور .. الأمر كان يدعو للقلق حينها.. وصلت إلى القسم.. هناك لم يكن الموضوع كما كنت أظن بخصوص سارة.. كان بخصوص زوجتي وابنتي.

ألقى أمامي رزمة صور طالبًا إليَّ تفحصها جيدًا.. عليها لقطات لرجل جاحظ العينين، الدماء تغرق صدره.. حين دققت فيه.. عرفته.. نظرت إلى صفوت، الذي أومأ برأسه حين شاهد تغير ملامح وجهي.. أخبرني أنهم عثروا على القاتل منذ يومين، وتم تصفيته.. القضية أغلقت.. هكذا أنهى حديثه معي.. غادرت.. بعدها العالم البسيط الذي كنت أعرفه، لم يعد له وجود.. أصبح مجرد صدى صوت يدوي من أقباء الماضي.. لم أعد أستطيع أن أحدَّ من امتداد الشر الذي يتمادى معي، ويمر من خلالي.. سوف أصل إلى الجحيم عمَّا قريب، فما يقال عني الآن أقل بشاعة.. من الحقيقة.

* * *

سارة..

كما اقتحمت حياتي فجأة.. غادرتها فجأة..

شهور عديدة لم أرَها.. علمت أن حالتها النفسية ساءت إلى أقصى درجة.. لم تُجدِ محاولات العلاج النفسي فائدة.. كل الأطباء والوصفات الطبية والهراء الذي أعطوها إياه كان بلا فائدة.. الحج سيد اضطر في نهاية الأمر إلى الاستعانة بالدجالين وبمن أوهموه بقدرتهم على تسخير الجان.. هذا قبل أن يقترح عليه شخص ما عمل جلسة زار لها.. كانت النتيجة كارثية في النهاية، وأُنقِذت سارة قبل أن تُلقي بنفسها من النافذة.. المسكينة كانت تتجه إلى حافة الجنون بخطى ثابتة.. وسريعة

في المدخل المظلم لشارعها كانت قدماها ترتجفان وهي تسير متدثرة بعباءة بالليل.

- سارة.

توقفت في مكانها بدون حراك، وقد أجفلت من ندائي الخافت القادم من ورائها.. لم تلتفت نحوي.. ظلت راسخة.. اقتربتُ منها.. أرى ارتجافة ساقيها تمتدان حتى رأسها.

لامستُ كتفيها برفق:

- إزيك.

استدارت نحوي لأرى الكدمات الزرقاء التي غزت عنقها

ووجهها.. لم تكد تتبين ملامحي جيدًا، حتى دفنت روحها داخل صدري، وقد أطلقت العنان للبكاء:

- آه يا فتحي.

احتويتها بصمتٍ، قبل أن أربت على كتفيها قائلًا:

- متزعليش.. إن شاء الله هتخفي، وتكونى كويسة.

- أنا خلاص مبقتش قادرة.. خايفة أصحى في يوم ألاقي نفسي في السرايا الصفرا.

- مستحيل يحصل فيك كدا وأنا موجود.. أنا هدور على أحسن دكتور وأعرضك عليه.

حاولت مسح دموعها بكم فستانها وهي تقول:

- أنا بكون كويسة لما بشوفك.

أخرجت منديلًا وجففت ما سكبته من عبرات:

- صدقيني هتكوني بخير.. تعالي معايا دلوقتي.

ثم رافقتها إلى أفخم مطعم في المدينة، والذي فُتحت أبوابه بطريقة آلية بمجرد اقترابنا منه.. قلت وأنا أمدُّ لها يدي لأشجعها على الدخول بعد أن ترددت:

- متخفيش.. إنت معايا.

ابتسمت وتركت لي نفسها أقودها إلى مائدة جانبية وضعت في منتصفها باقة من الزهور فوق مفرش أبيض مزركش.. أفسحت لها مقعدًا حتى تجلس فابتسمت في خجل:

- مش متعودة على الأماكن دي.. بعدين هدومي وشكلي.. يعني..

أجلستها كملكة قائلًا:

- الأماكن دي إتخلقت للملائكة اللي زيك.

جلست في مواجهتها حين لمحت الشيخ (أبو الورد) بصحبة فوزي والسكرتيرة العجوز، على مائدة بالقرب منا.. كان (أبو الورد) في مواجهتي مباشرة ويحيط رقبته بطوق طبي ليعالج آثار ما فعلته به.. اتسعت عيناه حينما رآني..أشار إلى فوزي الذي كان يوليني ظهره أن يقترب بأذنه منه.. سرت بينهم همهمات غاضبة، التفتَ بعدها فوزي نحوي متحفزًا وهو يعض على شفته السفلى في رسالة تهديد موجَّهٍ لي.. استقبلتها بغرز سكين الطعام في منتصف المائدة، وبالضغط على نواجذي.. اتسعت عين سارة وقالت بتوتر:

- فيه حاجه يا فتحي؟

أشاح كلاهما - فوزي و(أبو الورد) - عني ووضعا ما في أقدامهم بين أفواههم.

نظرت إلى زرقة عيني سارة، ثم احتضنت كفيها بين يدي قائلًا بثبات:

- أصل عينيكي حلوة.

ارتبكت أنوثتها بسرعة.. وجهها أنار ثم تضرج بحمرة الخجل اللذيذ.. حاولت سحبها يديها من يدي لكني تشبثت بهما بإصرار.. في نفس اللحظة آتانا النادل يبتسم بحماسة وسعادة وكأنه كان ينتظر طوال حياته تلك اللحظة:

- تحت أمر سيادتك.

قالها وناولنا قائمتي طعام تفوح منهما اللذة والفخامة.. نظرت سارة إلى قائمتها شبه ضائعة بين الأصناف.. ابتسمت:

- اسمحيلي أطلب أنا؟

لاح شبح ابتسامة على وجهها.. يا لسعادتي لهذه الابتسامة! استطردتُ موجهًا كلامي للنادل السعيد:

- بص.. عاوز فرختين حلويين كدا.. كمان محشي.. نوَّع لينا تشكيلة محشي.. وشوية كباب.. بلا ش كفتة.. بتحبي الكفتة؟

أجابتني:

- آه.

- خلاص هات كمان طبقين كفتة.

صاحت بخجل:

- فتحي!

وجهت كلامي للنادل:

- سيبك منها.. خدت بالك من كلامي؟

- أكيد يا فندم.. دقائق والأكل هيكون جاهز.

قالها وانصرف وهو مستمر في سعادته..

لحظة صمت تمر بيننا.. لم تدم اللحظة طويلًا.. قطعتها سارة دون تمهيد:

- تعرف لإن دكتور اشتبه في وجود ورم في دماغي

اندهشت عند سماعي ذلك.. استطردت بسرعة:

- لكن الحمد لله.. طلع مفيش حاجة.

قلت بهدوء محاولًا أن أخفي كل ما يدور داخلي من قلق عليها:

- مش عاوزك تفكري في حاجة دلوقتي.. خلينا ننبسط شوية.

ابتسمت وجالت ببصرها في المكان الفخم.. رغمًا عني تأملتها للمرة العشرين.. مسكينة بلا شك.

مرت دقائق لم ينطق أحدنا بكلمة.. انتظرت حتى تلاقت أعيننا.. قلتُ:

- إيه هنقضي الوقت كله ساكتين.. احكي عن نفسك شوية.

- مش عارفة أقول إيه عني غير اللي أنت عارفه.. والدي مات وأنا عندي ٧ سنين.. مش فاكرة منه غير إنه كان دايمًا لازم ياخدني جوا حضنه علشان أنام.. أمي أتجوزت عم سيد بعده بحوالي ٥ سنين.. أعمامي وأخوالي قاطعونا بعد ما اتجوزت.. الحمد لله استريحت منهم واتوفت من ٣ سنين.

- لما كنت عندكم لمحت كراسة مكتوب فيها شعر.. ده بتاعك؟

أومأت برأسها.. أردفت:

- طيب ما تسمعيني منه حاجة.. أنا ذواق قوي للشعر.

أزاحت خصلة ثائرة من شعرها، قائله بخجل:

- بجد مش فاكرة.. ده كان زمان.

تناولتُ ورقة ورحت أنقش عليه بقلم حبر جاف

- بتعمل إيه؟

- برسمك.

اعتدلت في جلستها وقالت باهتمام:

- عاوزة أشوف.

أخفيت منها الرسم بيدي وقلت:

- ثواني.

دقائق وأعطيتها الرسم.. أخذته في لهفة فاتسعت ابتسامتها ولمعت عيناها حين رأت صورتها:

- أنا حلوة قوي كدا؟

عدلت من خصلة شعرها أسفل الحجاب:

- أنت أحلى طبعا.

طبقته ووضعته في حقيبتها بحرص:

- دي أغلى رسمة في حياتي.

تعالى تدريجيًّا من حولنا صوت موسيقى هادئة.. اندمجت فيها سارة وأغمضت عينيها تتمايل عليها.. رحت أتأملها.. بدت لي كطفلة صغيرة تخطو أولى خطواتها في الحياة.

ساعة مضت بعد أن أنهينا طعامنا حين قررت رويدًا أن الوقت قد حان للمغادرة.. طلبت منها البقاء قليلًا لكنها كانت تحمل هم رعاية هم سيد.. خرجنا من المطعم لتستقبلنا في الخارج نسمة هواء جميلة جعلت سارة تبتسم:

- أنا لازم أكون بحلم.. بجد أنا فرحانة.

أجبتها وأنا أرى في عينيها السعادة الحقيقية:

- دايمًا يا رب تفضلي فرحانة على طول.

انطلقتُ بالسيارة مجددًا قبل أن أتوقف بها أمام مدخل العمارة.. التفتت نحوي:

- ما تيجي تطلع.

- مرة تانية.. سلمي لي على عم سيد.

قلتُها قبل أن أتذكر أمرًا ما.. استطردتُ حين همّت بأن تفتح باب السيارة:

- دقيقة واحدة يا سارة.. كنت هنسى.

ثم ناولتها ساعة رقمية تحمل ماركة تليفونات مشهورة.. نظرت إليها بتعجب.. أخبرتها أنها ساعة مراقبة إلكترونية متصلة بنظام تحديد المواقع (جي بي إس).. فقط ضغطة على زرها في حالة الخطر.. وأشرت لها على الزر.. وسوف يأتيني منها استدعاء.. تحت أي ظرف أو في مكان لن أتورع عن القدوم..

استشعرت الإحراج، وأرادت أن ترفض لكني صممتُ.. لم أتركها حتى وَضعَتْها حول معصمها، ثم تابعتها وهي تختفي من أمامي كحلم جميل وقد خفق لها قلبي بقوة..

ليتني أستطيعُ أن أخبرها أنها ملاك رحمة، وقد منحت فاشلًا مثلي ليلة.. من ليالي العمر.

* * *

الفصل الثامن

اقتادني الجلادون نحو المقصلة بقسوة تنافس قسوة أسياخهم الحديدية التي راحوا يغمدونها في ظهري بين الحين والآخر..

صراخ الغوغاء يهز ساحة الإعدام..

الغربان السوداء تحلق فوق رأسي في دوائر..

قدماي تعجزان عن حملي بينما مئات الأحجار والبيض الفاسد ترتطم بجسدي ووجهي..

حاولت أن أصرخ.. فمي يؤلمني بشدة.. الدماء تنزف منه بغزارة.. الألم فظيع.. شفتاي تتمزقان.. أعجز عن تحريكهما.. أصابني الذعر حين تبينتُ الأمرَ.. فمي تمت خياطته.

إحساسي بالألم تلاشى فجأة مع رؤية المقصلة ونصلها الحاد الذي تلطخ نصفه بالدماء وأسفله جسد نحيل لامرأة بلا رأس.. سقط قلبي من صدري وضاع تحت الأرض.. تعالى صُراخُ الغوغاء حين وُضِعَ

رأسي بين طرفي المقصلة.. أسفل وجهي مباشرة إناء معدني ملطخ بالدماء ويتسع لرأسي.. اصطدمت عيني برأس المرأة يقبع داخله.. عيناها تنظران لي وذهول الموت يتراقص بين مقلتيها..

الصراخ يعلو، والجلاد الملثم بقناع أسود يستعد لجذب ذراع المقصلة.. لاحظت وشم الثعبان الذي يقبع على ساعده.. الوشم.. الوشم.. كلما حاولت الصراخ تمزق لحمي أكثر.. رحتُ أُحركُ رأسي باتجاهه.. لاحظ ما أفعلُ.. جيد.. أشرت برأسي نحو الوشم.. انعقد حاجباه ونظر إلى وشمه.. أومأت له برأسي. أتمتم محاولًا أن أخبره.. لا بد أن أفهم.. تردد للحظة ثم..

جَذَبَ الذراع.

* * *

فُتح شباك النافذة فجأة لتهاجمني رياح باردة..

انتفضتُ في فراشي وأنا أستيقظ مفزوعًا على نداء خفي باسمي:

- فتحي.

نظرتُ إلى السماء التي شقها سيف البرق اللامع.. تحسست فمي وعنقي وأنا ألهثُ وقد انقطعت أنفاسي.. سقط البرواز الذي يحمل صورة أمينة نتيجة الرياح فتهشَّم زجاجه.. صوت الزجاج المتكسر أخرجني من شرودي الذي سقطتُ فيه أثناء تفكيري في هذا الكابوس.

نهضتُ.. تناولت البرواز بحذر محاولًا ألا أُصيبَ الصورة بضرر.. وضعته فوق الفراش، ثم أغلقت النافذة في وجه الظلام والريح.. أرى وجهي في زجاج النافذة وقد غارت وجنتاه على نحو بشع..

رميت نفسي تحت الدُّش.. المياه تهبط فوق ظهري كرصاصات باردة لا ترحم.. أتحمل برودتها برغبة في تعذيب النفس.. أرفع وجهي للأعلى مستقبلًا كل ما ينهمر من فتحات رشاش الماء الضيقة.. فاغرًا فمي عن آخره، مغمضًا عيني فيما يشبه الميت، كان الوقت قد خدرني..على حين بغتة راح شيء يُداعِبُ الستارة الملونة التي تحيط بي أثناء الاستحمام..

جذب ذلك انتباهي.. فتحت عيني متحفزًا.. الشيء بدأ يزيح جزءًا من الستارة.. تظهر أصابع سوداء طويلة منزوعة الأظفار.. أنين مخيف يأتي من خلفها..

ظهر جزء من وجه.. وجه أسود بشع خيطت شفتاه بخيوط سوداء غليظة.. فتحتا أنف واسعتان تسيل منهما الدماء.. لم تظهر العينان بعد.. ما زال جزء من الستارة يخفيهما.. جذبت الستارة لأكشف ما وراءها.. تلاشى ما كان موجودًا..

شككتُ في حقيقة أو وهم كل ما دار منذ قليل..

هناك آثار للأصابع على الستارة، لولاها لرميتُ نفسي بالجنون.. أو ربما صرتُ مجنونًا، ولكني أنكر ذلك..

علاج.. أحتاج إلى علاج.

علاجي هو شيء واحد.. شيء أحب فعله..

أماليا تويا.. أريد الوصول إليها وتذوقها من جديد.

ارتديت ملابسي على عجل، ثم ركبتُ السيارة وتوجهتُ إلى حيث تعمل.. كبارية راقٍ يحوي ملاعين أكثر رقيًّا..

حين تجاوزت البوابة اللامعة والكتل العضلية المسماة بودي جاردات، رأيت راقصة شبه عارية تصعد إلى المسرح، وقد ارتدت علم مصر لإظهار وطنيتها.. الجمهور يتنفس بصعوبة.. اللعاب يسيل والكل يتمنى قطعة من لحمها الأرميني الأبيض..

ليس هذا ما أبحث عنه الليلة.. أبحث عن لحم آخر.. لحم ناعم وأرداف ممتلئة..

أدور بعيني في الصالة المضمخة بروائح الخمر والدخان.. أرى أماليا تنكب على طاولة صغيرة بمفردها.. غائبة عن الوعي وأمامها زجاجة بيرة نصف فارغة، وقد تدلى نصف ثديها الأيمن على الطاولة، فبدت كبقايا طعام تم التهامه منذ فترة، وتركت بقاياه لتتعفن وتأكلها الديدان.. أصبحت ممتلئة إلى حد ما بالنسبة إلى ذوقي الجديد، لكن يمكن أن أتجاوز الأمر معها هذه المرة.. أيقظتها برفق.. ابتسمت عندما رأتني..

طوقتها بذراعي وأنا أقتادها للخارج، غير عابئ بنظرات شاب وردي البشرة يتمنى أن يحصل على بعض منها..

في الخارج رأيت السائق حادَّ الملامح في انتظارنا.. أصبحتُ أعلم مَنْ هو.. كان يطلق على نفسه اسم (جود) أو god بالإنجليزية.. مجرم يقوم بالمهام القذرة ومصاب بجنون العظمة، ربما رصاصة مني تصنع ثقبًا كبيرًا في جبهته، قد تجعله يستفيق من أوهامه..

طلبت منه أن يتركها الليلة.. وافق دون كلمة واحدة وركب سيارته وغادر..

انتظرتُ حتى ابتعد، ثم وضعت أماليا في سيارتي، بينما هي تتمتم بكلام غير مفهوم..

توجهتُ بها إلى فندق رديء، للمبيت فيه ليلة رديئة، داخل إحدى غرفه الرديئة..

أرى موظف الاستقبال يتابعني ببصره وأنا أحمل تويا التي ما زالت غائبة عن الوعي.. هو يعلم جيدًا ماذا سأفعل بها.. ليست أول مرة.. عليه أن يلتزم الأدب حتى لا تكون آخر مرة في حياته..

أخبرته بذلك فاصفرَّ وجهه، وتصنع الانشغال بعد ذلك بترتيب مكتبه بعد أن أبدى اعتذاره.

التحم جسدانا.. كان جسدها كاملًا بتضاريسه ومنحنياته القاسية.. رائحتها كزجاجة خمر مسكوبة تحت قدمي راقصة إستربتيز..

كانت تذوب بين يدي كقطعة زبد فوق نار هادئة.. غبنا عن الوعي

حتى

سقطنا معًا من فوق الفراش.. تضحك وهي تجذبني من جديد، أخيرًا أشعر بالنشوة البالغة، لكن لماذا لدي هذا الإحساس المتعفن بأن شيئًا ما.. خطأ؟!

* * *

بالرغم من برودة تلك الأيام، إلا أني شعرت أن تلك الليلة أصبحت حارة كالجحيم حين وردني الاتصال الذي انتظرته أيامًا حتى كنتُ على وشك أن أيأس منه.. اتصال سارة.

ركبتُ سيارتي بعدما تأكدتُ من وجود مسدسي معي.. أمسكتُ عجلة القيادة بقوة ابيضت لها مفاصل أصابعي.. أضغط دواسة الوقود حتى كادت قدماي أن تخترقا الأرضية.. محرك السيارة يعوي بصحبة صوت الكلاكس الذي رحت أطلقه تنبيهًا وتحذيرًا لمن يجرؤ على العبور أمامي.. تجاوزت إشارة مرور حمراء.. كدتُ أن أهشِّمَ مقدمة سيارة سوداء لولا أن انحرف بها قائدها..

المسافة تبدو أطول من ذي قبل..

تسارع نبضي كلما كنتُ أقترب.. اصمدي يا عزيزتي.. سينتهي كل ذلك الليلة.

حين توقَّفتُ بالسيارة أمام العمارة التي تقطن بها، رأيت نفس الشاب منكوش الشعر واقفًا، وقد استُبدلت عربة خضراوات بتربيزة البنج بونج، ومن وراءه صورة المشير (عبد الفتاح السيسي) يبتسم في سعادة.

طويت درجات السلم سريعًا تاركًا عضلات قدمي وقلبي تصرخ من النضال الذي أبذله، لم أتوقف إلا أمام باب الشقة الموصد..

عتمة مخيفة تداعب خيالي من وراء زجاج الباب الذي كان مغلقًا بإحكام.. فكرت أن أحطمه وأدخل، لكن لمحة سريعة من آخر مرة كنت فيها بالداخل أخرجتني بفكرة..

تسلقت منور السلم ومنه وصلت إلى مواسير المياه والحمامات القديمة المصنوعة من الزهر.. كانت تكتسي بالعفونة والخضار اللزج.. زحفت فوقها بصعوبة.. أسمع صوت المياه والخطايا البشرية تجريان داخلها.. اهتزاز عنيف وشرخ كبير يتصدع بين يدي.. أنظر إلى الأسفل البعيد جدًا، فأعلم أن الموت المحتوم هو نتيجة سقوطي..

أستمر في صعودي.. لا وقت للتفكير.. الماسورة تهتز أكثر وأكثر..

أرى بوابة الوصول.. نافذة مطبخ سارة ذات الضلفة المكسورة.. أصل إليها.. كانت مغلقة بأحكام شديد.. مددتُ يدي من الجزء المكسور، ومنه وصلتُ إلى المزلاج.. لحظات وكنت أفتحها وألقي بنفسي في الداخل وأنا ألهثُ..

استقبلتني برودة غير طبيعية جعلتني أرتعش للحظة.. كانت هناك رائحة غريبة تتسلل إلى أنفي.. رائحة أشبه برائحة الكتب القديمة.. دخان أبيض خفيف يدور من حولي كمن يبحث عن شيء مفقود.. بمزيد من الخيال ربما أظن أنه شبح ضائع يبحث عن جسد.

- سااااارة!

ناديت عليها، وأنا أتجول ببصري في الصالة، التي كاد أن يبتلعها الدخان.. وضعت يدي على أنفي محاولًا كتم أنفاسي.. أرى المقعد المتحرك الخاص بعم سيد مُلقًى أرضًا على أحد جوانبه.. ناديت من جديد:

- عم سيد!

فحيح مخيف يرد عليَّ النداء.. شيء بارد يلامس عنقي ويختفي سريعًا وسط الدخان.. جسدي ارتجف رغمًا عني.. أيًّا ما كان هنا فهو ليس بشريًّا بالتأكيد.. سأقتله حتى وإن كان الشيطان نفسه.. أخرجت مسدسي وسرت بحذر أتحسس موضع خطواتي وأنا أقترب من غرفة سارة المغلقة..

الدخان الأبيض يخرج من تحت عقبها.. أسمع صوت أنين مكتومًا من داخلها.. فتحت الباب ثم دخلت ويدي فوق الزناد..

حين رأيت ما أمامي، أصدر مسدسي كاتم الصوت همسًا صامتًا، مع طلقة مميتة خرجت من فوهته نحو أبشع مخلوق رأيته..

نحو الشيطان.

* * *

اختفى المخلوق الذي رأيته وسط الدخان فجأة.. رصاصتي أخطأت طريقها نحوه وكأنها انحرفت عن مسارها.. الرؤية تهتز أمام عيني وأنا أستعيد ذاكرة هذا المخلوق الذي كان يجثم فوق جسد سارة وكأنه يضاجعها.. كان الشيطان نفسه بقرونه المعقوفة ووجهه الأسود القبيح، وأعينه المشقوقة بالطول، التي تحوي نيرانًا حمراء أُجتُثَت من الجحيم.

اقتربت من سارة التي كانت في غيبوبة تامة.. وجهها ممصوص كمن نزف الحياة.. تتنفس بحشرجة وتهتة وقد اتسعت حدقتاها كأنها تعاني فزعًا رهيبًا.. شفتاها مزمومتان في حين تشنجت أطرافها وتصلبت تمامًا.

الأسوأ.. أنها كانت عارية تمامًا، وجسدها بارد كلوح من الثلج، وكانت آثار مضاجعة الشيطان لها تسيل من بين ساقيها على هيئة سائل أصفر لزج يشبه صفار البيض..

غطيتها بما وجدت من أغطية.. رحت أفرك يدي في وجهها محاولًا تحريك الدماء داخل عروقها..

راحت تتمتم بكلمات غير مفهومة، لم أفهم منها كلمة واحدة..

قررت أن أحملها وأخرج بها من هذا المكان الموبوء.. لففتُها في بطانية وحملتها فوق كتفي..

دوار غريب ضرب رأسي بلا مقدمات.. حين اقتربتُ من الباب لم تطاوعني قدماي وسقطتُ على الأرض.. جسدي يسترخي على نحو غريب ويرفض تنفيذ أوامري.. حاولت أن أنهض.. عجزت.. زحفتُ نحو سارة التي سقطت بالقرب مني.. غطيتُ الجزء الذي تعرّى من جسدها.. الصقيع يضربني في الداخل بقسوة.. قدمان مشعرتان كحوافر الماعز تقتربان مني.. اعتدلت على ظهري.. أخرجت مسدسي.. شهرته في وجه الشيطان الذي ابتسم في وجهي.. حاولت أن أطلق.. أصابعي متحجرة.. لم أعد قادرًا على حمل المسدس.. بات ثقيلًا في يدي كمئات الأطنان.. سقط من يدي بجوار وجهي.. لا يوجد هواء للتنفس فقط طعم الدخان الذي يزحف إلى أنفي.. حاولت أن أصرخ.. الكلام مات فوق لساني الذي ظل جامدًا.. جفوني تتحدُ معًا.. آخر ما رأيته كان الشيطان وهو يدنو بوجهه مني و.. ويبتسم.

* * *

ضربتني شحنة طاقة مفاجئة.. فتحت عيني لأرى الثعبان الأسود يدور حول ذراعي غامدًا أسنانه في عنقي..

كل الخدر والتعب الذي أصابني فجأة تلاشى..

لم تمضِ ثوانٍ على إغماءتي.. كنت ما زلتُ ملقًى على الأرض وأمامي مباشرة الشيطان يجثم فوق سارة، ويحاول حملها بصعوبة.. أرى الآن

مدى ضعفه.. الآن تذكرت الدخان الرائحة التي شممتها عند دخولي.. تنفستها من قبل عند عطوة..

اصطنعت الإغماءة بينما الشيطان يحمل سارة..

عندما مر من أمامي رأيته جيدًا..

عم سيد.. كان يضع قناع أوكسجين ويرتدي ملابس ملونة وفوق رأسه يضع زوجًا من قرون البقر..

فهمت الأمر أخيرًا.. سارة يضاجعها الشيطان.. شيطان بشري حقيقي، يستخدم دخان حبوب الهلوسة لإسقاطها في غيبوبة، ثم يتركها للظلام والسكون والوحدة لتفعل بعقلها الأفاعيل..

انتظرتُ حتى وضع سارة في مكانها وأتى.. تصلَّب في مكانه عندما رآني واقفًا.. ظهرت في عينه نظرة هائلة من الذعر وكأنه يرى أبواب الجحيم تُفتح أمامه.. كيف علم أنني سأرسله إلى هناك.

تراجع للخلف:

- إزاي.. مفيش بني أدم يقدر يفوق من الدخنة؟

رفعت ذراعي فاستطاع أن يرى وشم الثعبان الذي يدور حولها وأنا أقول:

- ومين قالك إني بني أدم؟!

ثم لويت ذراعه وراء ظهره وطوقت عنقه بذراعي وضغطت عليه.. جحظت عيناه والهواء يتلاشى من صدره.. أصدر حشرجة مكتومة حين قلت:

- النار نفسها مفيهاش مكان للي زيك.

هتف بصعوبة وهو يحاول المقاومة، بينما كنتُ أقوده نحو الشرفة:

- هتعمل إيه يا مجنون؟

- هنضف العالم منك.

صرخ:

- لو أنت مفكر إنك لو موتني العالم هينضف، تبقى حما...

ألقيته في الهواء ليبتر كلامه ويستبدل صراخًا هائلًا بكلامه، قبل أن يرتطم بالأرض، فيتمزق جسده وتتكسر عظامه على نحو بشع، صانعًا وراءه بركة هائلة من الدماء.

- عارف.. هبقى حمار.

أكملت جملته وأنا ذاهب إلى سارة لأطمئن عليها.. عندما تأتي الشرطة ستبدو كنوبة جنون صدرت من مريض مدمن على البرشام.. فتحت شباك غرفتها ليدخل الهواء النظيف إليها.. استطعت أن أسمع أصوات الجيران وهم يتجمهرون أسفل العمارة.. بدأت تفيق تدريجيًا:

- فتحي.

ابتسمتُ وقبلتُ يديها:

- حمدًا لله على سلامتك

حاولت أن تنهض لكنها لم تستطع.. هتفت بعصبية:

- حصل إيه وفين عم سيد؟

حضرت في ذهني العديد من الأكاذيب.. احترت في التخير من بينها.. في النهاية فضلت أن أخبرها الحقيقة..

شرحت لها الأمر باختصار شديد.. لم أنتظر أن أقرأ الذهول وعدم التصديق الذي ارتسم عليها.. غادرت المكان طالبًا إليها عدم ذكر اسمي.. تواريت وسط الحشد الذي ملأ المكان كذباب يلتفُّ حول فاكهة قبل أن أغوص من جديد وسط عتمة وظلام.. لا ينتهي.

* * *

الفصل التاسع

لم أكن أرغب في الرجوع إلى المنزل لكنني عدتُ.. رائحته تجلب الدموع إلى عيني.. عندما هممت بفتح الباب رأيت أماليا تلوح لي على الجانب الآخر من الطريق.. صرخَتْ بشيء لم أستطع سماعه.. أبعدت خصلة شقراء عن عينيها وهي تقترب مني.. كان شعرها رطبًا وسترتها مبللة بفعل قطرات المطر التي نزلت على استحياء تلك الليلة.... قالت بصوت ناعم:

- إزيك؟

- تمام.

- مختفي بقالك فترة.. ومش عارفين نوصلك!

أجبت ببرود:

- كنت مشغول في موضوع.. خير.. عقد جديد.

- طيب مش تقولي إتفضلي.. هيجيلي برد.

نظرتُ رغمًا عني إلى أجمل عينين خضراوين.. كانت ترتعشُ قليلًا.. قلتُ باقتضابٍ:

- إتفضلي.

في الداخل راحت عيناها تجوبان الشقة بلا توقف، تستكشف ما حولها باهتمام.. كان الماء يتقاطر منها ويتجمع أسفل قدميها.. قلت:

- هروح أجيب ليكي فوطة.

عندما عدتُ كانت تجلس على الأرض وتتجرع مشروبًا روحيًّا من زجاجة صغيرة صفراء، كانت تحملها في حقيبتها.. مدتها نحوي:

- تاخد شفطة؟ هتسخنك.

طوحت لها الفوطة:

- نشفي نفسك.

لم تعبأ بالفوطة التي سقطت عليها.. ضحكت بدلال:

- وحشتني.

ثم كشفت بطنها لتكشف عن وشم لأفعى تلتفُّ حول نفسها وتأكل ذيلها:

- شفت الـ Tattoo الجديد بتاعي.. عملاه مخصوص عشانك.. في واحد تأني بس في مكان مخصوص قوي.. الحرف الأول من اسمك، هنا.

وأشارت إلى ما بين ساقيها.. ثم غرقت في نوبة ضحك وهي تكمل:

- F ممكن تكون Fathy وممن تكون Fuck زي ما أنت تحب.

أعطيتها ظهري وتوجهت إلى الثلاجة.. فتحت زجاجة ماء وصببت نصفها في حلقي..

أحاطت خصري بذراعيها:

- معقول تسبني وأنا سخنة قوي كدا؟

ثم رفعت زجاجة الخمر على طرف فمي وأكملت بصوت هامس ساخن:

- اشرب.

لم أكن أرغب في شيء.. لا أريد الجنس أو الشراب.. فقط أريد أن ألقي بنفسي فوق الفراش وأغلق من خلفي كل الأبواب.. ما حدث هذه الليلة أزال شيئًا ما أسود، في قلبي.. هناك بذرة بيضاء في داخله الآن.. بصيص من الأمل والحب.

بعض القطرات تسللت إلى فمي ليبتل ريقي بالخمر.. أماليا.. أنت والخمر وجهان لعملة واحدة، كلاكما جميل لكنه ينتهي بصداع.

خلعت ملابسها حتى لم يعد عليها غير قميص نوم أبيض لا يكاد يكفي لإخفاء نصفها العلوي.. ابتسمت وهي تلعق عنقي:

- تحب نعملها هنا؟

أشعر بسخونتها فوق صدري.. نظرتُ إليها للحظات ليجيبها القدر بدلا مني.. رن هاتفي المحمول قاطعًا خيط الشيطان الذي امتد بيننا..

قرأتُ اسم المتصل.. كان عصام الذي لم أظن أنني يومًا ما سأسعد باتصاله مثلما سعدتُ الآن.. كان فقط يطمئن عليَّ.. أخبرته أنني في طريقي إليه لأساعده في حل مشكلته وسط عدم فهم منه عمَّ أتحدث..

أفلتُّ من بين ذراعي أماليا دون أترك لها الفرصة للاعتراض:

- معلش.. واحد صاحبي محتاجني في موضوع ضروري.. البيت بيتك.

صاحت بغضب وهي تجذبني نحوها:

- رايح على فين يا حما....

وضعتُ يدي على فمها مكملًا جملتها التي اعتدت سماعها في الفترة الأخيرة:

- حمار.. قديمة.

وغادرت يتابعني سبابها، ولعنتها علي وعلى اليوم الذي رأتني فيه.

* * *

وصلت إلى عصام الذي يجلس في ركنه المعتاد على القهوة وعلى نفس مقعدة المعتاد.. لن أتعجب إذا ما علمت أنه سيصاحبه معه إلى القبر.

أشار لي بالجلوس دون أن يخرج الشيشة من فمه وهو يتابع شاشة العرض.

- تفتكر دي نجحت ليه في مصر وفشلت في بلدها؟!

سألني وهو يشير إلى الراقصة الأرمينية، التي تهز جسدها في حماس منقطع النظير فوق شاشة العرض.. أجبته بتلقائية وأنا ألقي بنفسي على أقرب مقعد:

- علشان إحنا شعب رقاص ويموت في الحنجلة.

زفر وهو يلقي بنظرة بعيدًا عنها:

- الله يخرب بيتها بوظت الشباب وخلتهم يتفوا على نسوان مصر.

ابتسمت وأنا أجلسُ بجواره مشعلًا سيجارة:

- الشباب بس.. ما أنت أهو بتريل عليها.

لم يرفع بصره عن الشارع وهو يقول:

- لا وحياتك..

ثم أشار بعينه نحو امرأة تمرُّ من أمامنا وتحمل مؤخرة جذابة جدًّا، مستطردًا:

- أنا جويا وطنية ناحية حبيبتي مصر.

قلت بحنق:

- اتلم بقى.. مرأتك عندك.. لو فضلت نايم فوقها من هنا للسنة الجاية مش هتقولك قوم.

تنهد بحرقة وهو يضرب ببصره في قعر مؤخرة أنثى أخرى:

- آه يا فتحي.. مصر كبرت قوي وشوارعها وسعت.

ثم تذكَّر أمرًا فانقلبت لهجته إلى الجدية:

- مشكلة إيه اللي أنت بتقول جاي تحلها لي.. أنا مفهمتش حاجة.

أتاني القهوجي المريض بفنجان قهوة.. لدي إحساس بأنه بصق فيه.. قلت وأنا أرشف منه أول رشفة:

- لا.. دي حكاية كدا عملتها عشان أخلص من واحد غلس.. المهم إنت أخبارك إيه؟

عاد يتابع الراقصة:

- زي كل يوم.

- والولاد.. بقالي فترة مشفهتمش معاك.

استقبل سؤالي على مضض، ثم أجاب بعدما انتهى القهوجي من استبدال الشيشة الطازجة بالمنتهية يتصاعد منها رائحة التفاح المطبوخ:

- في ديل أمهم علطول وحياتك..

وصمت ليسحب نفسًا عميقًا من الشيشة الجديدة.. تساءلت عندها: كيف كانت لتكون حياته لو لم توجد الشيشة من الأساس؟! عاد ليستطرد بعدما بصق على الأرض وسحق البصقة بحذائه:

- اسكت حصل موقف ابن للذينه من كام يوم.. إنت عارف إن اسم والد المدام طه.. كنا في فرع اتصالات وبتاعت خدمة العملاء بتنادي على شفاء وتقولها.. مدام شفاطه.. بس طبعًا شفاء مسكتتش.. قالتها شفطناكى من زورك يا بعيدة

كدت أن أبصق ما فمي حين أخبرني بذلك وأنا أضحك قائلًا:

- عليا النعمة إنت معاك واحدة خسارة فيك.

- أتنيل.

ثم صمتَ وهو ينظر إلى ساعدي الذي تعرَّى حين رحت أمسح ما سقط عليه من قهوة.

- غريبة قوى الكتابة اللي على أيدك دي!

قالها باهتمام شديد.. غطيتُ الوشم بيدي قائلًا باقتضاب:

- دي مش كتابة.

اندفع نحوي وكشف عنه في طريقة وقحة لم أعهده عليها من قبل:

- بقولك دي كتابة.. إنت ناسي إن كعوب رجلي دأبت في أم السياحة!

تركته يفحص الوشم وقد جذب كلامه انتباهي.. استطرد:

- آه.. مضبوط.. كتابة بلغة قديمة بس اللي عملها لك معلم صحيح.. واخده شكل تعبان.

وراح يشير لي موضحًا الحروف المتشابكة.. سألته:

- وبتاعة إيه دي بالضبط؟

- كتابة قديمة من أيام الفراعنة خاصة بالكهنة.. كانوا بيستخدموها في كتابة اللعنات ضد أعداء الفرعون الإله زي ما كانوا بيطلقوا عليه.

- ودي ليها اسم.

زوى ما بين حاجبيه وهو يقول محاولًا تنشيط ذاكرته:

- طبعًا ليها اسم.. تقريبًا.. ديموطيقية.. هيروغليفية.. هيراطية.. أه.. افتكرت.. اسمها هيراطيقية.

الفصل العاشر

انتظرتُ بسيارتي..

كنتُ قابعًا بداخلها، أمام بوابة المستشفى العام يسرقني نور الشمس، الذي عبر الزجاج الأمامي للسيارة، ثم سقط فوق وجهي.

أرى سارة تخرج من المستشفى مرتبكة الخطوات تنظر إلى الأرض كمن تبحث عن شيء مفقود..

ترجلتُ من السيارة مسرعًا ووصلتُ إليها، قبل أن يتوقف أمامها تاكسي متهالك كانت قد أشارت إليه..

حين رأتني، ابتسمت، واكتست الطمأنينة ملامح وجهها الشاحب..

شكرت سائق التاكسي الذي تبرم وهو ينطلق لاعنًا أم البلد..

قلت وأنا أقاوم رغبة ملحة لاحتضانها:

- حمدًا لله على سلامتك.

- متشكرة قوي يا فتحي.. مكنش فيه داعي تيجي وتتعب نفسك

اصطحبتها إلى السيارة بخطوات سريعة حين لاحت لي في الأفق بوادر مطر قادم بعدما اختفت الشمس فجأة خلف سحابة رمادية اللون..

استكانت بجواري تنظر من وراء زجاج النافذة إلى المطر الذي انفجر بجنون.. صوت نقر المطر فوقنا مع حركة مساحات السيارة سرق عقلها وبصرها..

لا أعلم فيما تفكر.. احترمت صمتها، واكتفيت بفتح كاسيت السيارة لاستمع إلى صوت الرقيقة وردة الجزائرية وهو يخاطب أرواحنا المعذبة:

وعملت اية فينا السنين

فرقتنا.. لا

غيرتنا.. لا

ولا دوبت فينا الحنين.. السنين

لا الزمااااااااااااان

ولا المكااااااااااااان

قدروا يخلوا حبنا

ده يبقى كان.. الزماااااااااان

وبحبك، والله بحبك، والله والله بحبك

قد العيون السود أحبك

وأنت عارف، متنا عارف

أد إيه كتيره وجميلة

العيون السود في بلدنا يا حبيبي

وبحبك، والله بحبك، والله والله بحبك

التفتُّ نحو سارة التي أسبلت جفونها وراح صدرها يخفق وهي تتمايل برأسها مع الأغنية.. تركتها تستمتع في هدوء ملقيًا عليها نظرة خاطفة بين الحين والآخر

مع انتهاء الأغنية، كنا على وشك الوصول إلى شقتها.. فتحت عينيها وأزاحت خصلة من شعرها البني، جانبًا وهي تقول:

- واضح إني سرحت مع الأغنية.. أصلي بحبها قوي.. وحركت جوايا حاجات كنت قربت أنساها.

رفعت عيني عن الطريق لأنظر إليها:

- أنا كمان عاشق لأغاني وردة.

حين توقفت بالسيارة أمام مدخل العمارة الذي أصبح خاليًا تمامًا أطلت بعينيها إلى الأمام ثانية ثم تجمد تعبير وجهها كأنه صخر:

- فتحي.

قالت اسمي هذه المرة بطريقة مختلفة.. نبرة صوتها بها شيء جديد.

- نعم يا سارة.

سددت لي نظرة برأس مائل:

- سمعت كلام عنك في المستشفى.

- كلام.. عني.. ومن مين بالضبط؟

- طراطيش كلام كدا.. من اللي شغالين هناك.. ممرضين.. عساكر داخلية.

- كلام عن إيه؟

ترددت:

- إنك اللي قتلت.. مرأتك وبنتك.

هوت تلك الجملة كحجر فوق رأسي هشم جمجمتي بدويٍّ مزعج.. نظرت في عينيها ملتمسًا الجدية حتى وجدتها.. قلتُ محوِّلًا التحكم بنبرة الهدوء في صوتي:

- إنتي مصدقة الكلام ده؟

هزت رأسها بعنف:

- طبعًا لأ.. ده مستحيل.. لكن يا فتحي بص لنفسك.. أنت أتغيرت قوي.

- الشرطة قتلت المجرم من زمان.

- محصلش.. مقبضتش على حد لغاية دلوقتي.

تتحدث عن احتمال كوني من قتل أسرتي مرة أخرى، وكيف أن الشائعات تسري من حولي كالنار في الهشيم.. تراه مفاجئ.. أشخاص غامضون

كان ممكنًا عندها أن أصرخ عليها.. أن أجادلها.. لكن غصة خانقة حبست كل هذا..

نظرتُ إليها دون أردّ.. أمهلتني لحظات قبل أن تقول وهي تنزل من السيارة:

- خلي بالك من نفسك.

ثم ألقت عليّ نظرة أسف وغادرتني..

ظللتُ في مكاني متجمدًا كتمثال رخامي.. قلبي ترتفع نبضاته.. يمكنني أن أشعر بأن العالم قد انكمش فجأة من حولي ثم عاد ينبسط ببطء.. شديد.

* * *

ركبت سيارتي..

انطلقتُ بها دون أتوقف.. ساعات مرت وأنا أدور..

الهواجس تقودني نحو الجنون.. قررتُ أمرًا ما.. وصلت إلى المقابر

القابعة على أطراف المدينة.. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل.. البرد قارس والرياح شديدة تتصارع فيها بينها ثائرة بغير توقف

أمام باب المقابر الكبير توقفت.. بوابة هائلة من الحديد تتسع لمرور عربة نقل ثقيل.. ترجلت من السيارة وأنا أنظر إلى سور المقابر الضخم الذي زُيِّنَ بأسماء الله الحسنى الـ٩٩..

حين عبرت البوابة استقبلني عواء ذئب مجروح.. في مثل هذا الظلام والسكون لا بد من وجود ألف شيطان وشبح في انتظاري.. تجاوزت كل مخاوفي كما يجب وأكملتُ طريقي..

طرقتُ باب غرفة التربي القابعة بجوار مقبرة مفتوحة.. غرفة صغيرة لا تتجاوز مساحتها عشرة أمتار.. لم تكن هناك وسيلة لمعرفة مكان المقبرة والوصول إلى الجثة من دونه.. ظللتُ أطرق الباب عدة مرات حتى سمعت صوت قدمه وهي تتعثر، قبل أن يجيب:

- مين؟

- عفريت.

فتح الباب ورأيت على أعتابه رجلًا كهلًا، قصير القامة، انحنى ظهره، وأكل السوس كل أسنانه، بينما عيناه تختفيان تحت أطنان من العماص..

نظر لي من أسفل إلى أعلى محاولًا أن تستوعب عيناه ما يرى.. كان يغلق الباب بجسمه وهو يقول بلا مبالاة من لا يخشى شيئًا:

- وعاوز إيه يا سي العفريت؟

وضعت رزمة نقود في يده، فأجفل:

- دول.

تحسس النقود متلمسًا من ملمسها الدفء والراحة.. صافحني بود كصديق قديم ثم أفسح لي المجال للدخول..

جلستُ.. تطلعت إلى ما حولي.. المكان مكتوم، عفن، ومقتول.

منزل هذا أم قبر آخر.. هكذا تساءلت في قرارة نفسي.

جرى بعد ذلك كل شيء بهدوء.. شرحت له ما أريد.. ارتدى ملابسه وحمل معولًا صغيرًا، ثم اقتادني وسط منازل الأموات دون أن يسألني سؤال واحد.. مررنا وسط مجموعة من المقابر المفتوحة، كانت تبدو كعيون فارغة في جماجم زال عنها اللحم.

توقفنا أمام مقبرة من ثلاث عيون.. أشار على العين الأخيرة قائلًا:

- دفنوه هنا.

ثم شرع يحطم بوابة المقبرة.. كان صوت معوله وهو يهوي في هذا الصمت، يدق فوق أعصابي.. قال وهو يشير إلى أحد الأركان في الداخل:

- اللي على يمينك هي الجثة اللي إنت عاوزها

ولجت إلى الداخل.. رائحة نتنة استقبلتني بترحاب بالغ.. عندما مشيت خطوتين بالداخل هرب النور الخافت القادم من وراء باب

المقبرة.. أصبحتُ وسط ظلمة مخيفة.. أصوات هامسة تطلب إلي البقاء معها.. صممتُ أذني عنها..

شاهدت بقايا جثة قديمة في احد الأركان، خرج منها شبح رمادي، قبل أن ينسحب تحت الأرض..

ألقيت كل ما سمعته ورايته داخل سلة الأوهام، ثم أكملت طريقي حتى وصلتُ إلى حيث أشار التربي.. على ضوء كشاف هاتفي رأيت الجثة ممدة أمامي.. هنا الحقيقة.. لا يفصلني عنها سوى خطوة واحدة.

سلطت الكشاف على الوجه..

الأصوات الهامسة تصمت فجأة..

شيء ما تحرك من خلفي..

سقط قلبي بين ضلوعي وأنا أميز الوجه.. خرجتُ مسرعًا، ثم أمسكت بتلابيب التربي.. هززته بين يدي حتى كادت أطرافه أن تتفسخ.. صرخت فيه بينما هو مصدوم ومرعوب مني:

- دي مش الجثة.. مش هي.

- ورحمة أبويا وأمي، هي.. مفيش جثت جبتها الحكومة من فترة طويلة غير دي..

قالها وهو على وشك البكاء.. ثم استطرد بسرعة بها شبه الرجاء:

- بالراحة بس، فهمني، إنت عاوز إيه؟

كانت هذه أول مره يسأل فيها.. كززتُ على أسناني.. ليست هذه جثة القاتل التي أخبرني عنها صفوت وأراني صورتها..

عدتُ أدراجي بخطوات بطيئه، شاعرًا بأن قدمي تزنان أطنانًا، تاركًا الترىي على الأرض يلهث من الخوف وهو يتحسس عنقه..

كنت أقول لنفسي: إذا لم يكن هذا هو القاتل فمن يكون؟! كلام سارة الأخير يتردد كصدى صوت يأتيني من بين المقابر:

- الناس بتقول إنك اللي قتلتهم.

ممكن.. شعور بارد في معدتي.. قطار بخاري يمرُّ على شريط متقطع من ذكرياتي في ليلة ضبابية.. فعلت الشهور الماضية ما لم أتخيل أن أفعله.. أعرف ماذا سأفعل الآن.. سأعثر على القاتل..

سأعثر عليه حتى لو كنتُ أنا.

* * *

توقفتُ بسيارتي..

تابعت صفوت وهو يخرج سيجارته، ثم يشعلها قبل أن يركب سيارته منطلقًا بها من أمام نادي ضباط الشرطة..

حين خرج لعرض الطريق الدائري، كنت أسبقه بمسافة معقولة.. مررتُ بلافتة طريق تحذر من وجود رادار وأن السرعة القصوى لا يجب أن تتجاوز التسعين.. كلانا كان يتجاوز تلك السرعة بكثير..

تابعته في مرآة السيارة الأمامية.. أراه يخرج هاتفه المحمول، ويندمج في حديث طويل.. انتظرتُ حتى اقترب مني، ثم ضربت بقدمي دواسة الفرامل على نحو مفاجئ لترتطم مقدمة سيارته بمؤخرة سيارتي..

توقفت سيارتينا على خط واحد وسط الطريق، ومن خلفها رسمت الإطارات خطًا أسود على الإسفلت.. ألمحه يفتح الباب بسرعة، وينظر إلى الكارثة التي حلت بسيارته، قبل أن يتجه نحوي بغضب، وهو يطلق كوكتيلًا يجيد صنعه من الألفاظ النابية..

لم أفتح باب سيارتي.. اكتفيتُ بمتابعته من خلال المرآة الجانبية بينما هو يقترب.. صوته يرتفع في غضب:

- بطاقتك يا ابن الـ..

كانت هذه آخر جملة ينطق بها حين فتحت الباب فجأة وانقضضتُ عليه.. لم يستوعب الموقف إلا بعد اللكمة الثالثة التي أودعتها في فم معدته، ثم كانت الرابعة التي استقرت في ذقنه، وألقته على الأرض فاقد الوعي..

حملته داخل سيارتي بسرعة، ثم غصتُ بها إلى داخل الأرض الوعرة البعيدة عن العمران..

بعدما تأكدتُ من أني أصبحت على مسافة بعيدة عن أي كائن حي، سحبت ممدوح على الأرض، بعد أن كبلت يديه وقدميه بإحكام.. كانت

شمس الظهيرة تغمرنا، حين صفعته صفعة قوية على خده جعلته ينتفض، وهو يستعيد وعيه.. حاول أن يصرخ لكن الكمامة التي حشرتها داخل فمه كانت تمنعه..

أخرجتُ كماشة صغيرة، ثم أطبقتها على ظفر سبابته.. اتسعت عيناه وهو يحرك رأسه يمينًا ويسارًا بألا أفعل..

جذبتها بغتة ليخرج الظافر ملوثًا بالدماء وبقطعة من اللحم بين طرفي الكماشة..

جحظت عيناه من الألم حتى كادت أن تنفجر شعيراتها الدموية، وانطلقت منه صرخة كتمتها الكمامة داخل حلقه، وهو يتلوى على الأرض.

- إنت عارف أنا ليه شلت ضفرك؟

هز رأسه بالنفي، وهو يكاد أن يبكي.. أجبته:

- عشان أي محاولة للكذب عليا دي هتكون نتيجتها.. فهمت؟

أومأ برأسه دلالة على الفهم.. استطردتُ وأنا أُعدِّل من وضع النظارة السوداء التي أرتديها حتى تحجب ملامحي المتعبة منذ ليلة أمس وحتى أضفي بعض القسوة فوقها:

- كويس.. هشيل الكمامة دلوقتي.. تجاوب على قد السؤال.

ثم نزعتها عنه..

أشعلت سيجارة سحبت منها نفسًا، ووضعْتُها في فم ممدوح، الذي ابتلع دخانها بصعوبة، قبل أن يهتز صدره بكحة ثم يصقها جانبًا

- انتوا فعلا قتلتوا اللي قتل أسرتي؟

- لأ.

خرجت منه مكتومة.. سألته:

- عملت كدا ليه؟

اعترف قائلًا:

- هددوني.

- مين دول؟

- معرفش.

رفعت الكماشة في وجهه فارتعش:

- والله العظيم ما اعرف.. قابلت واحدة اسمها أماليا.. قضيت معاها ليلة.. تاني يوم لقيت اللي حصل بينا متصور.. المقابل كان إني أقنعك تبطل تدور على القاتل.

لطمتني المفاجأة.. لم أكن أتخيل علاقة أماليا.. قلت دون أن أنزل الكماشة من أمام وجه:

- وبعدين؟

قال بصوت خافت بعض الشيء:

- بدأت أخد منهم فلوس عشان اعمل اللي بيطلبوه مني.

- زي إيه كدا؟

صار أكثر جراءة فجأة وهو يقول بحدة:

- أنت مثلًا .. كان ممكن أشدك يوم قتل سيد.. وادخل حبيبة القلب سارة في متاهة ملهاش أول من آخر.

نهضت واقفًا أنظر إليه.. يتابعني بقلق.. الهواجس تنتابه الآن بالتأكيد حول ما سأفعله به.. مرت لحظات من الصمت لا يتخللها سوى أصوات أنفاسنا.

- إنت لو قتلتني هتفتح عليك طاقة جهنم!

قالها بتهديد.. صوته عالٍ لكنه جاء خاويًا بلا قوة.. رددت بحدة:

- اللي حصل بنا دلوقتي أنساه وإنساني.. مفهوم؟

- مفهوم.

قالها بينما كنت أحيط إصبعه المصابة بضمادة صغيرة قبل أن أفكَّ قيوده.

- لو حد سألك ممكن تقول نتيجة خبطة العربية.

جز على أسنانه قائلًا:

- هتصرف أنا.

ابتسمت ابتسامة باردة وأنا أساعده على النهوض.. الآن لم يعد أمامي إلا اتباع طريق الحقيقة حتى نهايته أو..

نهايتي.

* * *

انطلقتُ بسيارتي..

صرير حاد صنعته إطارات السيارة بعد أعدتُ ممدوح إلى سيارته دون أن نتبادل حتى كلمة واحدة خلال الطريق..

أمام الكباريه حيث تعيش أماليا توقفتُ..

في الداخل رأيتها وسط قاعة الرقص تتلوى بخصرها كحية مقطوعة الذيل أمام شاب وردي البشرة راح يلامس مؤخرتها بين الحين والآخر.. تنفخ عطرها وأنفاسها المحملة برائحة الكحول في وجهه.. تزداد نشوة مع ارتفاع الإيقاع الصاخب فتبعثر شعرها في الهواء وهي تصيح:

-wow .

تجرعت بعض البيرة وأنا أجلسُ على البار الذي امتلأ أغلبه بسكارى يضاجعون أنفسهم.. عندما انتهت الرقصة الصاخبة وبدأت أخرى هادئة تنساب على أنغام رومانسية، سحبت أماليا الشاب من يده

ثم اختفت داخل ممر جانبي مظلم يؤدي إلى البوابة الخلفية للكباريه..

عبرت الممر الذي بدا أمامي لا نهاية له حين سمعتُ صوت آهة ساخنة، اقتربتُ أكثر، استطعت أن أرى الشاب يقبلها قبلة حارة جعلت أنفاسها تتسارع، فيما أغمض الشاب عينيه منتشيًا بخمر شفتيها.

- أماليا.

خرج صوتي قويًّا فأجفل الشاب بينما ابتسمت هي حين رأتني.. قالت دون أن تتوقف يدها عن المداعبة:

- فتحي.. come baby ..my love

لم أعر كلامها اهتمامًا.. عادت وأردفت:

- تحب نخليها ثلاثية.. (مودي) معندوش مانع.. صح يا موووودي

قالتها بنعومة الحرير حين نسجه.

-why not ..I love it

قالها بصوت أنثى ترغب في دخول الحمام، قبل أن يبتسم ابتسامة إغراء سينمائية، وهو يمد يده ليصافحني:

- hi man.. أنا صاحب أماليا الجديد.

لم أعر ليده أدنى اهتمام وأنا أرميه بنظرة اشمئزاز:

- وأنا المجنون.. خد نفسك وامشي أحسن ما أقطعك بطريقة متخلكش تنفع لأي ست أو راجل.

-Take it easy ..Take it easy man

ثم انسل كالفأر المذعور.. التفتُّ نحو أماليا التي نهضت واحتضنتني حتى لامست شفتاها شفتي فارتطمت أنفاسها الحارة بوجهي وهي تقول:

- عشان كدا بموت فيك my beloved.. بحب همجيتك.

ثم جزت على طرف شفتي السفلى وأردفت:

- أوقات كتيرة بتخيل إن أنا وأنت على جزيرة فاضية.. عريانين.. وأنت بتجري ورايا.

أبعدتها عني ثم جذبتها نحو غرفة صغيرة جانبية.. صاحت وما زال الخمر يعبث بعقلها:

- هنعملها هنا.. في المخزن.. wow.. أنت.. true.. true.. جامد

صفعتها بقسوة.. لم يبدُ عليها تأثير.. هوت على وجهي بصفعة مماثلة

- يا بنت المجنونة!

ثم ضحكت كما لو أن شخصًا ما يداعبها، حتى كادت أن تقع على الأرض.. تلفتُّ حوالي باحثًا عن فكرة.. آتيت بكيس ملح، ثم أذبت ربعه داخل كوب ماء:

- اشربي ده.

ثم سكبته حتى منتصفه داخل فمها غصبًا، بينما هي تحاول المقاومة..

أفرغت ما في معدتها على الأرض وهي تشهق.. رفعت الكوب إلى فمها مرة أخرى.. تصرخ بتوسل وقد انفجرت نافورة من العرق فوق جبينها:

- كفاااااية.

لم أعبأ بها.. أسكب بقية الماء المالح.. هذه المرة أفرغتُ بقوة أكثر من السابقة حتى صنعت بركة من القيء، وأوشكت أن تخرج معدتها فوق الأرض..

تركتها تستريح لدقائق، تتلوى بين القيء الزلق الذي لوث وجهها وملابسها.. مسحتُ وجهها وشعرها بمنديل نظيف، ثم أجلستها فوق كرتونة طعام.

- فوقتي دلوقتي؟

أومأت برأسها.. ناولتها زجاجة ماء نظيف رشفت منها رشفة صغيرة ثم وضعتها جانبًا.

- بصي.. أنا معنديش حاجة أبكي عليها.. وأنت عارفة أنا عملت إيه وممكن أعمل فيكي إيه.

اهتزت قدماها في توتر.. تلفتت حول نفسها كأنها تلتمس العون من السماء أو الأرض.. أجابت:

- عارفة.

- انتى بتشتغلي مع مين؟

اعتصمت بالصمت التام.. كررت سؤالي لها بحدة أكثر وبلكزه قوية في أعلى كتفها.. نظرت في عيني ثم جاوبتني بسؤال:

- ليه؟

- ليه إيه؟

- ليه بتسأل؟ إنت معاك دلوقتي كل حاجة.. الفلوس.. القوة.. حتى السلطة ممكن نطوعها.

صحت فيها:

- عاوز اعرف الحقيقة.

- لو عرفتها تفتكر هتستريح؟

- ملكيش دعوة.

- إنت.. إنت اللي قتلتهم.

قالتها كمن يطلق قذيفة آر بي جي.. نظرت في عينيها لأسبر أغوارها.. الغريب أنني أرى الصدق فيها.. أخرجت سكيني.. أدرته أمامها في الهواء.. خفضت عينيها وهي تكمل:

- ده اللي اتقال ليا.. أنا معرفش أكتر من كدا.

- وصفوت.. ليه حرضتيه إنه يخدعني

صاحت بحدة وهي تنظر في عيني:

- عشان تركز معانا وتنسى فيلم أمير الانتقام اللي إنت كنت عاوز تعيش نفسك فيه.

ضغط على كل حرف وأنا أسألها:

- القاتل تبعكم؟

عادت تقول بحدة أكثر:

- معرفش.. أنا بنفذ.. مبسألش.

قالتها ثم تجرعت رشفة ماء أخرى وقد بُحَّ صوتُها..

- نرجع لسؤالنا مين اللي بيشغلك؟

- برضو معرفش.. التعليمات والأوامر بخدها من جود.. أنا مجرد صورة.. حلقة الوصل جود.. مش أنا.

قرأتُ الصدق في عينيها.. فكرت لبرهة.. ناولتها منديلًا آخر، ثم تركتها وابتعدت.. قبل أن أغيب عنها سمعتها تنادي:

- فتحي.

التفتُّ إليها متسائلًا دون أرد.. قالت باستجداء:

- بلاش.

هززتُ رأسي أن لا بأس.. قلتُ:

- حاولي تختفي الكام يوم اللي جايين.

- خلي بالك من نفسك.

- متقلقيش عليًا.

سألتني:

- هشوفك تاني؟

أغلقتُ الباب خلفي وأنا حقًّا.. حقًّا لا أعرف الإجابة.

* * *

الفصل الحادي عشر

جود..

أراقبه من بعيد.. كتلة عضلية ضخمة تشتعل شراسة وعنفًا لا ينطفئ.. كان يقف أمام الكباريه بجوار سيارته الزرقاء في انتظار راكبته الوحيدة تويا.. ملامح وجهه الباردة لا تنمُّ عن أي انفعال.. معه أربعة من أصدقائه يتنفسون بصعوبة وكلهم سكارى.. يمكنني أن أنقض عليه.. الحماسة تخبرني بذلك، لكن العقل يرفض..

انتظرتُ..

أعلمُ جيدًا متى يحين الوقت والمكان المناسبان.. شيء تعلمته في الفترة السابقة.. نسبة انتصاري تتوقف على مدى قدرتي على اختيار المكان والزمان اللذين سأحارب فيهما..

انتظرتُ حتى جاءه نداء الطبيعة.. ترك مكانه وذهب إلى دورة المياه الموجودة خلف الكباريه.. كان يبصق على كل شيء يمر من أمامه..

لسبب ما تذكرت خطبة الحجاج بن يوسف: «إني أرى رؤوسًا قد أينعت وحان وقت قطافها».

حين توقَّفَ أمام المبولة يخرج ما في مثانته، كنت أنا كذلك بجواره أتظاهر بفتح سحاب بنطلوني.. الحقيقة كنتُ أقبض على صاعق كهربائي.. كان يدندن بلحن أغنية Hey Sexy Lady لـ Shaggy

حانت منه التفاتة نحوي بلا تركيز، ثم عاد يغلق سحابه، حين انفجرت في عقله صورتي.. أجفل للحظة في مكانه.. تجاوزها بالتفاتة أخرى سريعة.. باغتُّه قبل أن يفتح فمه وسددتُ الصاعق نحو عنقه مُطلقًا أولى صواعقه.. تحملها في جَلَدٍ غير عادي، وهو يقبض على ساعدي.. تطوحنا معًا في الأرجاء حتى ارتطمنا بباب الحمام، فتحطم قبل أن نسقط فوقه في دويٍّ مزعج وكلانا يرفض الاستسلام..

زمجر بغضب، ثم عض كفي حتى كادت عظامه أن تتهشم بين أسنانه.. انفلت الصاعق مني حين هوى على وجهي، بلكمة ساحقة دار لها رأسي.. عاد ورفعني فوق ظهره، ثم طوحني في الهواء كدمية صغيرة، لأصطدم بالحائط الذي تهشَّم بلاطه المزخر قبل أن اسقط على وجهي فاقد القدرة..

من مكاني على الأرض أراه يصرخ كوحش هائج وهو يمزق قميصه مثل مصارعي الـ WWE..

تفاديت انقضاضته بصعوبة، ثم طوحت قدمي لتدمر خصيتيه، صرخ على إثرها، وكادت روحه أن تخرج مع الآهة التي أطلقها..

تمالك نفسه، ثم دار من حولي بخفة لا تناسب حجمه، وانقضَّ يعتصر عنقي..

كاد أن يحطم عنقي حين أعلن الوشم عن نفسه أخيرًا.. تراقص رقصته التي صرت أعشقها، قبل أن أمدَّ يدي وأقبض على مؤخرة عنقه وأعتصرها بقسوة.. يداه ترتجفان من حولي وهو يصرخ.. هذه المرة أودعته لكمة في جنبه حطمت بعض أضلعه وألقته بعيدًا..

تناولت الصاعق لأنهي به ما بدأته.. ثانية واحدة وكان على الأرض خارج الخدمة، جاحظ العينين، تسيل رغوة بيضاء من بين شفتيه..

طللت برأسي إلى الخارج لأتأكد من خلو الشارع..

حملت جود فوق كتفي بصعوبة نحو سيارتي التي أوقفتها أمام المدخل مباشرة.. لم أكد أضعه في المقعد الخلفي حتى سمعت ضجيجًا من ورائي وسمعتُ امرأة تصرخ بالتزامن مع صوت لطمة..

لم أكلف نفسي عناء النظر للخلف.. انطلقتُ بالسيارة، قبل أن يتجمهر الناس، إثر الصراخ المذعور، الذي ظل يطاردني عدة حوارٍ.

توقفت أمام عصام، المستمر في تدخين الشيشة، وقد احمرت عيناه نتيجة حبة ترمادول.

- اركب يا عصام.. عاوزك.

ناديت عليه فتأفَّفَ قليلًا، ثم تحرك أخيرًا من مقعده.. لدى إحساس أن المقعد قد تنفس الصعداء أخيرًا

ألقى بنفسه بجواري، وهو يصافحني قائلًا:

- خير يا نجم؟

أشرت بطرف عيني أن ينظر إلى الخلف.. دار برأسه حيث أشرت، وهو يبتسم بحسن نية:

- معاك مزة وراء، ولا معاك...؟

قطع كلامه، ثم شهق وهو يهتف:

- يخرب بيت أبوك.. إيه الغوريلا اللي وراء ده؟

كان تعبير الدهشة على وجهه حين رأى جود ليبدو مضحكًا في ظروف أخرى، لكن ليست هذه الظروف.. قلت:

- هفهمك كل حاجة بعددين.. المهم عاوزك تتصل على المعلم عطوه وتقوله إنك محتاج الخُن بتاعه وفهمه إني هدفعله كويس.

- الله يحرقك بجاز.

صرخت فيه:

- اخلص.

أشاح بيده:

- طيب.

قالها ثم أجرى مكالمة سريعة مع عطوه ثم سألني:

- إيه الحكاية بالضبط؟

شرحت له باختصار مَنْ هو هذا الغوريلا، وما حاجتي لـه.. التـزم بعدها الصمت بعد أن هربت كل دماء وجهه..

وصلنا إلى بيت عطوه الذي يقبع وسط الخرائب والظلام.. ساعدني عصام في حمل جود، بينما وقف عطوه يستقبلنا على المدخل، بملابسه الداخلية حافي القدمين مبتسمًا وكله سعادة:

- يا أهلا بالمفاجآت.

قالها وهو ينظر حولنا في حذر متوقعًا قدوم الشرطة خلفنا.. بعدما اطمأنَّ، أدخلنا إلى غرفة نصف مظلمة في آخر المنزل يتخللها نور لمبة سهاري على وشك الموت.. نقدته رزمة نقود جعلته يزداد اطمئنانًا..

وضعنا جود فوق طاولة خشبية قديمة بعدما أزاح عطوه ما عليها من أطباق وعلب فارغة، وقعدة حمام بلدي، لا أعلم لماذا كان يضعها..

قيدت جود علي الطاولة بإحكام باستخدام حبال غليظة حين سأل عصام:

- هتعمل فيه إيه؟

- هخليه يتكلم.

قال وهو يقطب جبينه:

- أنا شايف نوديه للقسم، وهناك يتصرفوا بمعرفتهم.

اعترض عطوه:

- قسم إيه يا جدع.. صاحبك بيعمل الصح.. خدها مني حكمة.. العالم مليان قصور وجباين.. والشاطر هو اللي ياخد حقه بدراعه.

تبرم عصام وأشاح بيده:

- هتعملي فيها سقراط يا خويا!

انشغل كلاهما في جدال حتى كاد عطوه أن يهشم شيشته المحببة فوق رأس عصام..

طلبت إليهما أن يتركاني.. جذب عطوه ، عصام الذي بُحَّ صوته، ثم أغلق الباب خلفهما..

أسمعهما من الناحية الأخرى يتجاذبان حبلًا غليظًا من الشتائم.. دقيقة ثم انقطع فجأة.. أتعشم ألا يكون أحدهما قد قَتَلَ الآخر

تناولتُ الشيشة، ثم صببت ماءها كريه الرائحة فوق وجه جود الذي انتفض مفزوعًا.. حاول أن يمزق قيوده، لكنها كانت أقوى منه.. نظر لي بوجه جامد الملامح، وهو يزوم بغضب، ثم بصق ما دخل في فمه من ماء بوجهي.. مسحت الماء بيدي حين قلت وأنا أتناول مشرطًا صغيرًا:

- تصدق.. أنا عمري ما سمعتك بتتكلم.. أوعى يكون صوتك وحش.

بدت منه ابتسامة ساخرة وهو يسترخي في مكانه.. استطردت:

- على العموم هو سؤال واحد إجابته هي بس اللي ممكن تنجيك.

ثم اقتربت بوجهي منه قائلًا بصرامة:

- مين اللي بيديك الأوامر؟

- (..) أمك.

ردٌّ بذيء لم أُولِهِ اهتمامًا.. مضيت في كلامي بلا توقف:

- أنت اللي هجمت عليا يوم السوق.. مضبوط؟

أجاب فيما يشبه السخرية:

- يومها إنت كنت ضعيف.. ضعيف قوي.

- واضح إن دمك خفيف .. على فكرة أنا بحب أمثالك.. مهما أعمل معاهم مبحسش عليهم بالشفقة

ثم نزعت عنه ملابسه كلها.. أكملت بلهجة مهددة:

- أتكلم..

انتزعت أولى أصابعه.. الثانية.. توقفت أمام الثالثة.. جز على شفتيه من الألم دون أن يصرخ.. ضغطت على حروف كلماتي:

- متضطرنيش أبقى عنيف أكتر من كدا.

وأشرت إلى قضيبه:

- ده هيكون الشيء اللي هقطعه بعدين.. طبعًا أنت مش عاوز تكون مخصي.

ثم داعبت قضيبه بالمشرط مستطردًا بسخرية:

- ولو أنه صغير وميستحقش البكاء عليه.

نظر إلى متحديًا..

تناولت وصلة سلك كهرباء وقمتُ بتعرية طرفه:

- نخلينا الأول في الكهرباء.. أنا حاسس إنك هتحبها.

ثم وضعتُ السلك فوق قضيبه وأحكمته جيدًا.. سألته:

- لما تحب أبتدي.. قول ابتدي.

ابتسم:

- ابتدي.

قالها في صرامة وهو يشد عضلاته.. أوصلت الفيشة بالكهرباء ليسري التيار داخل عروقه حتى أوشك على أن تجفف دماؤه.. فصلت الفيشة.. صرخ بأعلى صوته فيما كان جسده يرتعش:

- اديني تاني.. عاوز اتشحن.

ثم راح في موجة ضحك متواصلة..

صعب المراس بلا شك.. لم أكن أتوقع قوة احتماله.. أدرت وجهي الناحية الأخرى حتى لا يرى نظرة القلق التي خرجت رغمًا عني.. في تلك اللحظة دخل عطوه وهو يهرش رأسه:

- إلحق صاحبك عصام.. شكله هيفضحنا.

ناولته الفيشة والسلك.. رفعت صوتي ليسمعني جود:

- كمل أنت معاه.

ابتسم عطوه ابتسامة سادية، وهو يلامس طرفي السلك ببعضه، فتطايرت منه شرارة كهربائية:

- غالي والطلب رخيص.. هدلعه.

همست لعطوه في أذنه قبل أن أغادر:

- بالراحة عليه.

ثم ذهبت إلى عصام الذي كان فوق السطح، ينفث الدخان بشراهة، ويدور حول نفسه دون هدف.

- اهدا كدا يا عصام.

زفر دخانًا واضطرابًا:

- يا عم أنت وديتني معاك في ستين داهية.. أنا ماليش في الحوار ده.

- عاوز تمشى بالسلامة.. لكن أنا لازم أعرف من اللي وراء قتل أمينة ونادية.

قلتُها بحدة.. نظر لي ولم يعقب.. فأكملت:

- تفتكر أنت لو مكاني كنت هتعمل إيه؟

فكر لثوانٍ، ثم رمى سيجارته على الأرض، قبل أن يسحقها بقدمه في غلٍّ.. استطردت قائلا:

- زي ما انت شايف البلد سايبه.. ولو استنيت حد يجيبلى حق دمهم.. يبقى موت يا حما..

قاطعني:

- يا حمار.. عارف

ابتسمت ثم وضعت يدي على كتفه أربت عليه بامتنانٍ.. سألني:

- وهتعمل إيه لما توصل للقاتل؟

- لسة مفكرتش.. بس أكيد حاجة أسوأ من الموت

بعد ربع ساعة كاملة كنا على الأرض نتبادل أنفاس الحشيش.. عصام يتابع الدخان الأزرق الذي يتطاير من حولنا ببطء.. نظرت إلى نار السيجارة التي تشتعل.. تداعت في داخلي ذكريات عديدة:

- النار مبتحرقش مؤمن.. هههههه.

التفت إلى عصام الذي وصلت إليه الدعابة متأخرة، ثم غرق معـي في نوبة ضحك متواصلة، حين قاطعنا عطوة الذي دخل علينا، شـاحب الوجه، مرتبك الكلام، ومبحوح الصوت:

- معلش يا بهوات.. الغوريلا اللي تحت.. فيص مني

لم أستوعب ما يقول في البداية:

- إيه؟

أطلق قذيفة مدفع:

- فيص.. مات يعني.

- هه.

* * *

- (.....)

بين الأقواس يمكنك أن تضع كل مـا تحفظـه مـن سـباب بـذيء.. كذلك فعلتها وأنا أهرع متكسر الأعـصاب نحـو الغرفـة التـي صـارت قبرًا..

اهتزَّ بصري بشدة حين دخلت.. شممت رائحة شياط بعدها رأيت جود.. كان وجهه يحمل لمحـة مـن الرعـب وعـدم التـصديق.. جـسده

تخشب تمامًا في مكانه، بينما بول داكن اللون يسيل منه، ويتجمع تحت الطاولة..

حاولت أن أسعفه بقدر ما أستطيع.. ربما دلكت قلبه.. ربما هززته بعنف.. ربما أيضًا حاولت إعطاءه قبلة الحياة..

في النهاية وبعد نصف ساعة مضنية من محاولات إنقاذه، تأكدت أنه مات، وقطع له ملك الموت تذكره ذهاب إلى الجحيم بلا عودة.

شعرت بألم في رأسي، وأنا أستند على الطاولة.. جثة جود تحدق بي، وتخرج لي لسانها القبيح، الذي امتلأ بالبثور الحمراء، وكأنها تشاكسني وتغيظني.

ركعتُ على الأرض في قلة حيلة.

تقلص كل شيء في مجال نظري مرة واحدة.. عصام بدا وكأن شاحنة محملة بأنابيب بوتاجاز صدمته على حين غفلة.. عطوة يبتلع حبة ترمادول قبل أن يتمتم بكلام غير مفهوم ويحدث أشخاص غير موجدين..

فجأة التفت عصام نحو عطوة، ثم دخل معه في فاصل سباب طويل تطور إلى قيام عطوة، بصفعه على خده الأيسر .. الأيمن.. أربع صفعات متتالية ساخنة.

أفقتُ على صوت الصفع.. احمرَّ وجه عصام الذي كاد أن يصنع من عطوة طبق عجة بشرية مخلوطة ببقايا حبوب الترامادول.

شيء ما في أعماقي يخبرني أن أتركهما ينهيان شجارهم حتى ينتصر أحدهما على الآخر أو يقتلا بعضهما بعضًا..

قاومت رغبتي الشديدة في ذلك ونهضت أباعد بينهما.. حين انفصلا توعد كلاهما الآخر.. عصام توعده بأن يقطع يده، بينما عطوة توعد بأن يخصيه ويضع قضيبه داخل فمه..

انتظرتُ حتى أخرج كلاهما شحنة غضبه وتوتره، ثم أجلست عطوة وحاولت التحدث إليه.. تصنعتُ الهدوء وأنا أسأله:

- مات منك إزاي؟

تردد كشخص يستعدُّ للوقوع في الفخ، قبل أن يقول بصوت متوجس من العقاب:

- قعد يقوللي كمان كمان.. قمت موصله بالكهرباء، ورحت أضرب سيجارة.. عقبال لما خلصتها، رجعت، لقيت دماغه شايطة.

ابتلعت ريقي الذي جفَّ وأنا أقول:

- طيب اسمعني كويس. مفيش كلمة قالها زيادة

فكر ثم قال:

- ده واد أمه (...)، ومقالش أي حاجة.

جذبه عصام من كتفه بقسوة:

- وادي أنت موته.. استريحت؟

أزاح عطوة يده وهو يصيح بحدة:

- بص ابعد عني. ولو كان على جثته.. اعتبرها اختفت.. مالك كدا خلَّع؟

صحت فيهما:

- إهدى بقى أنت وهو.

ثم التفت نحو عطوة:

- ركز بس.. أنا سيبتك معاه أكتر من ربع ساعة.. أكيد قال أي كلام!

زفر بضيق:

- مفيش.. كان مكتوم وكأنه بالع بلغة قديمة في بقة..

ثم قطع كلامه فجأة، حين بدا عليه أنه تذكر أمرًا ما.. استطرد ببطء:

- لكن وهو بيفص قال يا دكتور.. أنا افتكرت إنه عاوز دكتور.

دكتور.. رنت كقذيفة مدفع داخل رأسي.. تذكرت صفوت حين أخبرني أن هناك دكتور أصاب القاتل.. الخيوط تتجمع في عقلي.. هل يعقل أن يكون هذا الدكتور؟ انتقلت اللعنة له ومن خلاله وصلت لي.. الأمر يبدو جنونيًّا.. لكنه منطقي.

أفقت من تفكيري على صوت عطوة، وهو يخبرني انـه سـيبيع جثـة جود لأحد طلبة الطب.

لم أرد عليه أخذتني أفكاري إلى صفوت، احتمال كبير أنه يعلم أيـن يعيش الدكتور.

صوت جرس الباب يرن.. نهض عطوة وأمرنا ألا نـصدر صـوتًا.. من خلال الباب الموارب رأيته يفتح باب المنزل، الذي ظهـر عـلى عتبتـه طفل رث الثياب، قذر الوجـه، يحمـل صـورة مطبوعـة وفي يـده كيـسًا أسود،

نظر الطفل إلى الصورة ثم إلى عطوة قبل أن يلمحني من بعيد.. قال عطوة وهو يضرب الفتى على كتفه:

- عاوز إيه يا اض يا ابن ال...؟

- مسا الخير يا عمنا.

قالها الطفل ثم مد يده فجأة داخـل الكـيس وأخـرج منـه مـسدسًا لمعت فوهته الفضية، قبل أن تخرج منها رصاصة قذفت عطـوة في الهـواء كلاعب أكروبات يسقط من فوق الحبل.

* * *

حاول عطوة أن ينهض لكن قدميه خذلتاه فسقط من جديد.. هـذه المرة ظل في مكانه بلا حراك، بينما راحت دماؤه تسيل من ثقب في صدره بحجم كرة التنس.

دخل طفل آخر يحمل مسدسًا بينها الأول أشار نحونا:

- مستخبين هناك اهم.

ثم تقدم كلاهما نحونا بخطى ثابتة حذرة..

أيقنت الآن أنني في الطريق الصحيح، وأن من أسعى خلفه قد استشعر الخطر وقرر محوي..

أغلقتُ الباب بسرعة وطلبت إلى عصام أن يحتمي بأي شيء.. كان مذهولًا لم يستوعب ما حدث بعد.. دفعته جانبًا إلى أحد الأركان.. من سوء الحظ أنني لا أحمل سلاحًا..

في الخارج انصب وابل من الرصاص على الباب فصنع به ثقوبًا كثيرة.. كانت أصوات الطلقات تصمُّ الآذان..

بطريقة ما لمحت عصام يستجمع نفسه ويتغلب على خوفه.. تناول مقروطة كان يحتفظ بها عطوة داخل فردة حذاء قديم وأخبره من قبل بمكانها.. حاول أن يدخل فرد خرطوش بها.. راح يفتح خزنتها بغباء وجهل.. الأحمق سيؤذي نفسها قبل أن يؤذي أحدًا آخر..

ألمح الطفلين يبدلان خزانات مسدسيهما.. أشرت لعصام أن يلقي المقروطة لي.. وكأنه كان يحمل عبئًا ثقيلًا فوق ظهره، ألقاها لي بسرعة بالغة قبل أن ينزوي في ركنه..

وضعت الخرطوش في فوهة المقروطة.. يمكنني أن أطيح بكليهما بطلقة واحدة.. أحتاج فقط إلى مكان مناسب للتصويب..

جريت في اتجاه جثة جود التي تحولت إلى مصفاة دماء بشرية.. حين بلغته شعرت بألم حارق في قدمي اليمنى، نتيجة رصاصة شاردة، من سرب الرصاص الذي عاد ينهمر..

خذلتني قدمي فسقطتُ.. كانت الثواني العشر القادمة سريعة.. تفاديت رصاصة قريبة انطلقت نحوي من أحد الطفلين، كان قد عبر الباب وصار في مواجهتي.. قبل أن يعيد الكَرَّة، أطلقت الخرطوش الوحيد نحوه، فطوحه كلعبة صغيرة في الهواء، قبل أن يهوي ميتًا في الحال، دون أن يملك الوقت للصراخ..

بعض الرش العشوائي أصاب وجه الطفل الآخر، فأطلق ما بقي في خزانة مسدسه عشوائيًّا، ثم ركض للخارج مذعورًا وهو يولول..

تنفستُ الصعداء، ثم استكنت على الأرض لدقائق ألهثُ.. تأكدت من سلامة عصام ثم ذهبتُ إلى عطوة.. كان لم يمت بعد.. طمأنته:

- هتكون بخير يا حج.. هتصل بالإسعاف حالًا.

أتمنى ذلك في الحقيقة لكن الأقرب أنه سيموت بعد قليل.. ابتلع ريقه بصعوبة ثم تكلم بعينين زائغتين وابتسامة محمومة:

- أنا مش حاسس بأي وجع.

احتمال أن تناوله لكميات كثيرة من الترامادول جعلته كذلك، أو أن وقت إنقاذه قد ركب القطار السريع.. السريع جدًّا

ابتسمت له بلين، ثم وضعت قطعة قماش أسُدَّ بها مكان الرصاصة محاولًا الحفاظ على دمائه..

سمعت صوت سرينة مدرعة شرطة تقترب.. أتت كعادتها بعد الوقت الضائع..

تسللت أنا وعصام وسط أهل الحارة، الذين تجمهروا حول المنزل، لاعنين أم وأب الحشيش والترامادول

- هنعمل إيه دلوقتي؟

سألني عصام الذي ما زال يرتعش، ونحن ننطلق بسيارتي بعد أن ربطت قدمي عند مكان جرح الرصاصة:

- إنت مش هتعمل حاجة..كفاية عليك لغاية كدا.. أنا هرجعك لبيتك وأولادك أحسن.

اكتفى بالموافقة الصامتة.. توقفت بالسيارة أمام باب منزله.. نزل ولم ينظر للخلف.

* * *

الفصل الثاني عشر

كان صفوت لا يـزال يغـلي بغيظـه حـين اتـصلت عليـه.. أخبرتـه برغبتي في معرفة عنوان الدكتور الذي أخبرني عنه من قبل.. تملل قلـيلًا وشك كثيرًا لكنه أجاب بعد أن أقسمت له بأن أختفي تمامًا من حياتـه.. علمت منه أن الدكتور كان يعيش في فيلا على أطراف العاصمة..

ربما أجده هناك وربما لا.. لكنها رحلة، وسوف أذهـب فيهـا حتـى النهاية.

لكن قبل ذلك لا بد من زيارة أخيرة..

توجهت إلى سارة.. على الرغم من استيائها مني فإنها وافقـت عـلى مقابلتي.. قطبت جبينها حينما توقفت أمامها بالسيارة، لكنهـا لم تـستطع إخفاء ما لديها من مشاعر صادقة نحوي.

مررت في الأسابيع الماضية بما لا يمكن تخليـه، لكنـي حتـى الآن لا أجرؤ على زيارة قبر أمينة ونادية.. قلبي لا يطاوعني، وكـذلك لا يوفـق عقلي.

الوحيدة التي من الممكن أن تكون بجواري الآن سارة.. شجعتني حينها أخبرتُها..

داخل المقابر كان الموت يتمدد ثقيلًا في الطرقات الموحشة..

هناك أيضًا صمت لم يكن يقطعه سوى صوت مقرئ كفيف يتربع على الأرض بجوار شاهد قبر حديث..

وصلنا إلى قبر أمينة ونادية بعدما تخطيناه.. الألم يستولي على قلبي ويعتصره.. ذلك الألم كان من النوع القاتل الذي لا يمكنني معه أن أصرخ الآهة..

لامست سارة أصابعي وقبضت عليها حينها رحتُ أرتجف.. لدقائق لم أرفع نظري نحو المقبرة.. أضرب بعيني في التراب.. تفترش دموعي الأرض بجوار القبر..

أرفع بصري أخيرًا.. أقرأ اسميهما وسط الجبس الأبيض.. أنظر إلى المقبرة لفترة طويلة كأنها الأبد وأنا أحدث نفسي وأحدثهما أيضًا.. لماذا انتهى بكما الحال هنا؟ الأولى أن أكون بدلًا منكما.. أنتما لا تستحقان هذا المصير؟

أسترجع الماضي.. رغم جماله لم أشعر به سوى بعد أن فقدته.. كنت أعتقد أن أمامي الوقت الكافي والعمر كله.. صوت نادية كان حازمًا.. صوت أمينة كان حياة.. في هذه اللحظة أردت أن أسأل الله: لماذا

اختارهم؟ عندها رفَّ فوقي هدهد بسرعة البرق.. خجلت ولساني عجز.

تخبرني سارة أن الجنة مملوءة بالسعادة، والأرض مملوءة بالتعاسة.. وأن الله اختار لها السعادة..

اقترب منا المقرئ الكفيف يتحسس بعصاه الأرض.. ألقى علينا سلامًا لم يصل كاملًا إلى أذني.. سارة استوقفته وطلبت إليه أن يقرأ رحمة ونورًا على أرواح من مات.. افترش الأرض ومضى في عمله.. راح يقرأ قراءة روتينية بلا حدة أو انفعال.. حين انتهى نقدته مبلغًا صغيرًا تلقَّفَهُ بسرور، ثم رحل يبحث عن زبائن آخرين.

تطلبُ إليَّ سارة أن أقرأ الفاتحة.. تبدأ بالقراءة بصوت مسموع.. شاركتُها.. تدخل بعد ذلك في وصلة دعاء طويل، لها بالرحمة.. أردد من ورائها قول (آمين).. حين انتهت بدأ قلبي ينبض بالراحة والسكينة.

التفتُّ إلى سارة ونظرت إليها بعين ثابتة، وأنا لا أعرف ماذا أقول.. ابتسمتْ في وجهي بعطف.. تربت على كتفي بحنان شديد.. أريد أن أبقى معها للأبد.. لكن الأوان قد فاتَ.

* * *

أنهيتُ حمامًا تعمدت فيه أن أنظِّفَ كل سنتيمتر في جسدي.. عددت ثلاث رسائل تحذير من ملك الموت على هيئة ثلاث شعرات

بيضاء نافرة في رأسي.. تناولت مكنة الحلاقة الكهربائية وأزلت كل شعر الرأس.. ارتديت بدلة زواجي التي ما تزال تحتفظ بعبق تلك الليلة الجميلة.. تعطرت جيدًا.. أمسكت صورة أمينة ونادية.. أشتاق لابتسامتكما.. وضعت الصورة داخل جيبي بعد أن قبلتها..

تأكدت من ذخيرة أسلحتي.. وضعت مسدسًا حول صدري وآخر في جراب صغير حول كعبي.. سكيني الضخمة ذات النصل الحاد احتفظت بها في جراب خاص على جانبي..

ما أنا ذاهب إليه ربما لن أعود منه، لكنني على استعداد لعبوره ولدفع ثمنه مهما يكن باهظًا..

عصام يضرب كلاكس السيارة بلا رحمة جعلني أخرج له سريعًا.. الشمس كانت حاضرة في وجهي حين ركبت بجواره.. وجهه ممتقع والخوف عنوان مطبوع فوق جبينه كمن ينتظر لقاء ملك الموت..

كررتُ له طلب أن يتركني، لكنه ما زال مصممًا.. يظنُّ أنه في مقدوره أن يساعدني في مرحلة ما.. شكرته.

سرنا بالسيارة لمدة تتجاوز عشر ساعات، تبادلنا خلالها مقعد القيادة فيما بيننا أكثر من مره قبل أن نصل إلى العنوان المطلوب مع قرب منتصف الليل..

توقفنا بالسيارة أمام سوار عالٍ لفيلا قديمة.. كانت تقع في منطقة خالية لا تصل إليها أصوات الطريق..

نظر إليَّ عصام بتخوف ولم يهبط كأنه يحتمي بالسيارة.. خرجت من السيارة وأشرت إليه بأن ينتظرني في مكان منزوٍ.. أومأ برأسه وهو يبتسم ابتسامة أشد شحوبًا من وجهه..

جُلت ببصري فيما حول الفيلا بإمعان بينما كان نعيق البوم يحطم السكون ويشكل موسيقى تصويرية كئيبة..

مشيت نحو السور محاولًا تتبع نهايته، أتلمس أحجاره بين الحين والآخر حتى وصلت إلى جزء مُتهدِّم من السور يتسع لمروري بالكاد.. نظرتُ من خلال الفتحة.. كان يوجد ممر حجري ضيق.. مررت من خلال الفتحة وتحركت داخل الممر.. اختفت أصوات البوم بمجرد عبوري.. عانقت ريح دافئة وجهي.. أرى إضاءة تشعُّ في نهاية الممر كأن الشمس في انتظاري.. الجو ساكن وهادئ.. كل شيء يدعوني للدخول.. الشر سيكون في انتظاري.. أعلمُ ذلك.

* * *

تقدَّمتُ للأمام..

بعد بضعة أمتار، وفي نهاية الممر كنتُ أقف أمام بوابة خشبية ضخمة تعلوها مشاعل، ورماح مدببة تنظر إلى أعلى، وخلفها تكمن أكبر مخاوفي وأكثرها رُعبًا..

دفعتها ببطء فتحركت..

أمامي بهو واسع جدًّا، نصف مظلم، وخالٍ تقريبًا من الأثاث.. سرتُ فيه بحذر.. كانت الأرض باردة تحت قدمي..السقف ممتلئ بالعفن والبق.. درت بعيني في الجوار.. تنصتُّ السمع لبرهة من الوقت.. لا دليل على وجود أحد هنا..

كان هناك سلم مصنوع من خشب عتيق يقود إلى أعلى، أوصلني إلى ممر معوجٍّ، مظلم، وضيّق جدًّا، في نهايته باب غرفة مغلق تتسلل رائحة كريهة من تحت عقبه..

مددتُ يدي نحو مقبض الباب.. ميزت فوقه نقش قديم لنجمة السحر الأسود خماسية الأضلاع.. وجدت شيئًا يلامس أطراف أصابعي حين أدرته.. صرصار أسود صغير أصابني بالاشمئزاز.. كم أكره هذا المخلوق!

أدفع الباب برفق فيصدر صريرًا حادًّا، ومن خلفه ظهر ظلام سرمدي لا نهاية له، أعلم أنه سيبتلعني داخله..

تحركت بضع خطوات إلى الداخل شاعرًا بالدماء تتجمد حول مكان الرصاصة في ساقي..

أسمع صوت الباب يُغلق من خلفي بغتة.. التفتُّ ناحيته فلم أعد أراه وكان الظلام ابتلعه.. من قال إنني أنوي الرجوع.

مياه تتدفق أسفل قدمي، شعرت ببرودتها حين راحت تتسلق قدمي متحدية قانون الجاذبية.. ظلت ترتفع حتى وصلت إلى ركبتي ثم

توقفت عندها، لتعود من جديد تجري بعدما أتمت مهمتها بمعرفة من القادم.

ظللت أسير إلى الأمام حتى ظننت أن لا آخر لما أنا فيه.. بقعة ضوء صغيره تتشكل من بعيد وتبرز مثل شمعة على وشك الموت.. أخيرًا شيء ما غير الظلام أعثر عليه..

بقعة الضوء راحت تكبر كلما دنوتُ منها.. الرؤية الآن صارت أكثر وضوحًا.. أقف وسط قاعة رخامية، أرضيتها حمراء مثل بحر من نار، في منتصفها ما يُشبهُ مذبحًا قديمًا، فوقه جسد ما، مُخْفَى تحت ملاءة بيضاء، تلامس أطرافها الأرض.. في آخر القاعة ما يُشبِهُ كرسيًّا أو عرشًا مصنوعًا من الأبنوس زُيِّنَ بنقوشٍ نحاسيةٍ.

فحيح مُخيف آتى من خلفي.. التفتُّ نحوه.. على مسافة قريبة بزغ أمامي رجل أصهب نحيل الجسد رائحته غريبة.. كان وجهه طويلًا للغاية وشاحبًا.. شعره أبيض كالكتان مجدول على هيئة ضفيرة واحدة طويلة، يجرها خلف ظهره.. عيناه كانتا بلون أحمر برتقالي مشتعل كلهيب النار.. أنف مُدبَّبٌ ودقيقٌ ذكرني بالرخام المنقوش.. يرتدي ثوبً أحمر من قطعة واحدة، فضفاضًا أكثر من اللازم ومخيفًا أيضًا أكثر من اللازم.. أصابعه رفيعة، طويلة العُقل، تنتهي بأظفار صفراء طويلة تم بردها كمخالب..أيضًا كان يضع سلسلة فوق صدره تحوي أسنانًا نَخِرَة وبقايا عظام آدمية.

حين لم يعد بيني وبينه غير ذراع تكلم بصوت مألوف.. صوت سبق أن سمعت نبرته الرعدية داخل الحفرة الصخرية:

- انحني.

ثم حرك إصبعه نحوي في إشارة صامتة بأن أنفذ ما أمَرَ به.. لوهلة كنتُ على وشك أن أجثُمَ فوقه، وأضع يدي داخل حلقه، ثم أنتزع روحه منها، لكن ثقل هائل شعرت به فوق كتفيَّ، أرغمني على الانحناء، حتى لامست ركبتاي الأرض..

حاولت أن أرفع يدي.. قضمها شلل غير طبيعي.. تكلمت بصوت خرج مخنوق:

- إنت مين؟

- خادم الوشم المقدس.

ورفع يده للسماء في حركة مسرحية تستحق التصفيق قبل أن يبتسم ابتسامة ماكرة، ظهرت من خلالها أسنانه التي تباعدت بينها المسافات، وكأنها تم بردها بمبرد أظفار.. عدتُ أسأله:

- لك اسم؟

لزم الصوت طويلًا حتى ظننت أنه لم يسمعني.. أجاب بعد حين:

- عندي أسماء كتيرة لو إنت مصمم تعرف.. لكن السؤال الصح .. أنا إيه؟

حين قالها انتابتني رعـشة كهربـاء حقيقيـة مـرت أسـفل جلـدي.. حركت قدمي خطوة بسيطة.. عضلاتي تتوعدني بألف وعد مـن وعـود الألم.. سألته:

- أنت جن؟

حرك رأسه نافيًا:

- إنتم مفيش في تفكيركم غير الجن والبني أدمين.

قالها بصيغة الغريب.. رددت:

- إنتم؟! ليه قلتها بالطريقة دي؟ إنت حاجة تالتة؟

- إحنا.. انتم.. مفيش فرق.. المهم انك هنا دلوقتي.

- مخبي المجرم فين؟

- قصدك الدكتور؟

- أيوه.

- قدامك هناك.

وأشار للجسد الموجود فوق المذبح.

- حي ولا ميت؟

- مفهومك للحياة والموت هو اللي على أساسه ممكن. أرد

صحتُ:

- إنت هتلف في الكلام.. الميت هو اللي الروح بتخرج منه.

بغموض متزايد أجاب:

- وفقًا لمفهومك أقدر أقولك إنه ميت.

قلتُ بحدة:

- ومحتفظ بيه ليه ما دام...؟

قاطعني بسرعة:

- وبالنسبة لمفهومي هو لسه عايش.. كل يوم أنا بقدر أتكلم معاه.

لا أصدقه.. وكأنه يقول لي إن نهر النيل انتقل إلى إسرائيل:

- إنت كذاب.

ابتسم ابتسامة صبورًا حزينة لرجل اتُّهِمَ ظُلمًا بما ليس فيه، ثم استطرد:

- على فكرة هو كان زيك بالضبط إنسان كويس وعايش في حاله.. يمكن لو كنت عرفته قبل كدا كنتوا بقيتوا أصحاب.

ثم التفتَ نحو الجسد المسجى فوق المذبح.. مص شفتيه وعاد متذكرًا:

- الوشم إتنقل له يوم قتل مراته.. نفس اللي حصلك بالضبط وكأن التاريخ بيحب يفكر نفسه.

فكرت مليًّا فيما يقول.. اتَّجهَ نحو المذبح.. أزاح عنه الغطاء.. ظهرت جثة الدكتور كما هي حتى إنك لتشك في كونه ميتًا.. قلت:

- ليه قتلتوهم؟

- إحنا مقتلناش حد..

وأشار إلى الوشم الموجود على ساعدي:

- ده اختياره.. أكيد إنت أكتر واحد عارف إن الموضوع ملوش دعوة بالمشيئة.. خليني أقولك حكمة.. عالمنا مش محتاج أبطال.. محتاج وحوش زيك.

تبادلت النظر بينه وبين الجثة:

- وإنت مفكر إنك تقدر تتحمل ألم كونك وحش.. عذاب ما بعده عذاب.

- تقدر تقولي إنت جاي ليه؟

- جاي أحقق العدالة.

قال بصوت يشوبه هدوء غريب:

- العدالة ولا الانتقام؟!

- الاتنين بالنسبة ليا واحد.

- لا.. العدالة هي الشيء الصح لكن كتير مبتكنش على هوانا.. الانتقام بيحقق الراحة النفسية لكنه بيقتل الروح.

قلت بحدة:

- يبقى أنا جاي أنتقم.

عاد واقترب مني.. انحنى نحوي حتى كادت أرنبة أنفه تلامس أنفي.. تعرفت إلى الرائحة الغريبة المنبعثة منه.. رائحة الكبريت.

تحسس رأسي بتلذُّذٍ:

- كلامك بيخليني متشوق من دلوقتي عشان أجرب وأعيش كل اللي أنت عشته.

لم أفهم قوله.. قرأتُ سابقًا عمن يستخدم طقوسًا من السحر الأسود لاستحضار أرواح الموتى، لا أعلم إن كان هو ممن يقدرون على ذلك، لكن احتفاظه بجثة الدكتور تذهب بي هذا الاعتقاد.

- هقتلك.

قوَّس حاجبيه:

- إزاي؟

ثم ضحك بخفوت وهو يدور من حولي قائلًا:

- متفكرش إنك استثناء.. كتير غيرك وصلوا للنقطة دي ونهايتهم كانت...

وأشار للأسنان والعظام التي تتخلل سلسلته كنتيجة حتمية.

- المؤكد إني في النهاية هتحرر.

- المؤكد إنك جزء من لعبة أزلية وقديمة.. ضوء ضد ظلام، وخلود ضد فناء.

واستطرد وهو يضغط على كل حرف من كلامه:

- وفي النهاية كل شيء مقدر له إنه بيحصل.. بيحصل.

يستمر في الكلام غير المفهوم.. لعق جبهتي بلسانه الجاف.. حاولت التجرد من القيود الخفية التي تكبلني.. دمائي أشعر بها تنزف بغزارة من جرح ساقي.. لا أعلم إن كانت بسبب المجهود الذي أبذله الآن أم أن هذا المخلوق قد أعطاها أمرًا بالفرار بيننا.. لاحظ ذلك.. أشار نحو المذبح:

- بص كويس على المذبح ده.. عليه هيدور حوار طويل بنا.

ارتجفتُ في مكاني وأنا أستنفر كل طاقتي:

- أنا كنت جاي أقابل مجرم.. لكن واضح إني قابلت شيطان.

تذكرت سارة حين قلتها.. وكأني لم أقل شيئًا غطى الجثة واتجه نحوي سابحًا فوق الأرض.. قال:

- لكن في النهاية من حقك تعرف شيء.

ثم وضع يده فوق رأسي ونفخ في وجهي حين اختفى..

اختفى كل ما حولي.

* * *

الفصل الثالث عشر

في الظلام..

للحظة شعرت أن الزمن قد توقف..

تدريجيًا بدا النور يحيط بي..

وسط قاعة مهيبة كنت أجلس فوق عرش مهيب تحيط بي الرايات البيضاء والخضراء..

قمتُ من فوق العرش وأنا أتحسس ملابسي التي تشبه ثياب ملوك القرون الوسطى..تعجبت من كثرة السلاسل الذهبية التي تحيط بعنقي.. لامست الثقل الذي فوق رأسي.. تاج صغير تخرج منه حراب صغيرة تتوسطه جوهرة زرقاء، رأيت انعكاس صورتي عليها.. كنت مستطيل الوجه، غائر العينين، معقوف الأنف، تم جدل شعري على هيئة ضفيرة طويلة في نهايتها حلقة ذهبية

اقتربت من نافذة واسعة تزينها رأس لبؤة محنطة.. من جهة الشرق رأيت خيوط الصباح الأولى وهي تطفئ النجوم المنخفضة في الأفق..

أمامي مباشرة وأسفل مني ساحة واسعة تبدو كمكان لتجمع الحشود يحيط بها سور، آخرها برج عالٍ ينتفخ عند قمته على شكل شرفة ضخمة ذات فرجات يقف داخلها حراس مدججون بالحِرابِ، بجوار ناقوس نحاسي ضخم

اقترب مني رجال مهيبو الطلعة، ضِخام الرؤوس، الخوف والتوتر تناقلوه فيما بينهم حين انحنوا أمامي..

مرت فترة صمت ثقيلة قبل أن أصيح بهم غاضبًا.. قَتْلُهم وقَتْلُ أولادِهم ثم إلقاء زوجاتِهم وبناتِهم لدى أصحاب الرايات الحمر هو العِقاب..

كبيرهم يتحدث وهو يبكي.. يخبرني أن لا دخل لهم بمحاولة اغتيالي.. يتوسل لدقائق قبل أن يقدم لي اقتراحًا غريبًا..

بعد تفكير.. ثم تفكير.. وأخيرًا تفكير.. أرفض اقتراحه.. أهزُّ رأسي بالرفض.. هذه الحركة البسيطة سببت لي ألمًا في جمجمتي.. هل يعقل أن أكون مريضًا؟! حاولت أن أستند على عرشي فإذ به يتهاوى فوقي بينما الجميع يحدق بي.. في صمتٍ.

* * *

حين أفقتُ كنتُ على فراشي واهن الجسد..كبراء الدولة يحيطون بي فيما يشبه انتظار موتي.. أتذكر ما عُرِضَ على سابقًا ورفضته.. لا أرى من

حلٌّ آخر سواه.. أصرخُ بهم أن يأتوني بها.. لن أموت أيها الملاعين.. لن أموت.

تدخل بعد ذلك امرأة عجوز ماتت منذ عشر سنوات على الأقل، ترتدي فروة ذئب وتكاد تختفي داخلها، وهي تدنو مني بدون مجهود وكأن قدميها لا تلامسان الأرض..

رفعتُ يدي أستوقفها في مكانها.. سجدتُ على الأرض دون أن ترفع وجهها..

ما زلتُ غير واثق بما سأقحم نفسي فيه.. فهناك دائمًا ثمن، فلا شيء يُعطى مجانًا غير الموت..

تخبرني أن اسمها (بلاسفيهاير)، وأنها من نسل كهنة الفرعون الإله، الجالس على عرش مصر المُقدَّس، وتعلم كل أسرار السحر العظيم..

تطلب إليّ أن أشمر عن ساعدي.. تنقش عليه لعنة مكتوبة بكتابة الكهنة (هيراطيقية) كما أخبرتني.. النقوش الغريبة التي حفرتها تنتقل من سطح جلدي وتتوغل داخل دمائي، لحمي، عظامي، وحتى روحي

حين انتهت كانت على شكل ثعبان أسود مخيف.. تخبرني أن القوة والخلود باتا من نصيبي، وأن لا أحد سيجرؤ بعد اليوم على محاولة قتلي، فاللعنة ستقتله وتقتل كل من هو مِنْ نَسْلِه.

بعد ذلك أرى نفسي أجول وسط ساحات القتل والحرب.. أرفع السيف بيدي مُخضَّبًا بالدماء.. قُرًى ومنازل تحترق.. رؤوس رجال

معلقة فوق رماح خشبية.. نساء يُخَنَقْنَ.. أطفال يدفنون أحياء.. صراخ يجلجل، يطاردني في كل لقطة بلا انقطاع.. ضحكات رجال، وقرع كؤوس خمر، فوق أجساد نساء عاريات، يرقصن، ثم يمارسن السّحاق بأمر مني..

آمر بجلب (بلاسفيمابر) ثم حرقها.. أتابع الأدخنة وهي تتصاعد من جسدها حاملة رائحة الشواء.. لحمها كان نَتِنًا.. السّرُّ لا بد أن يُدفن معها.. لا يمكن أن أسمح لغيري بامتلاك تلك القوة..

بدا لي أن ما يحدث لن ينتهي أبدًا، وأن الخلود هو أمر مُقدَّر لي.. أصبحت أمارس عمل الرب، أنزع الأرواح وأهب الحياة لمن أشاء.. هو يستخدم الأمراض والكوارث وأنا أستخدمُ السيف.. ثم معركة على أطراف مدينة ضخمة..الطريق أمامي مفتوح لنصر آخر.. أجندل المحاربين الذين أمامي بلا رحمة.. الكل يخشاني ويخشى السحر العظيم الذي يحرسني.. وسط احتدام غبار المعركة كنتُ أرفعُ سيفي وأستعدُّ للإطاحة بشاب أبيض ارتعش حين رأى ريشتي السوداء.. اشتبكتُ بعدها مع زنجي قبيح الوجه.. سرعان ما انتقلت معركتنا إلى الأرض.. وقبل أن أقسمه نصفين لمحت بطرف عيني شيئًا يلمع.. تراجعت للخلف.. لا أشعر بشيء.. واتتني فكرة غريبة أنني تعرضت لطعنة غادرة.. نظرتُ إلى معدتي.. الدماء تتدفق منها كنهر صغير.. وأخيرًا جاء الصعب.. ألمٌ حادٌّ مفاجئ.. تحملته ثم أطرت عنق من هاجمني..

فجأة صرتُ أطير أيضًا في الهواء غير مُصدقٍ ما حدث حين استوعبت الأمر.. رأسي هو الذي كان يطير بينما يمكنني رؤية باقي جسدي وهو يرتعش، وقد خرجت من عنقه نافورة دماء أغرقت وجه الزنجي القبيح الذي رفع سيفه غير مصدقٍ.. أدور بعيني وأنا أرى حوافر الخيول تُثير الغبار.. حصان أسود يرفع حافره نحوي.. الحافر أكبر مما أتخيل.. صهيل عالٍ ثم.. ظلام.

* * *

الفصل الرابع عشر

فصل الربيع..

أعلم أنه فصل الربيع من نسمة الهواء التي تلامس وجهي وتُداعِبُ شعري الذي انسدل على كتفي، وقد ارتديتُ جلبابًا مفتوح الصدر، طويل الكمين، مصنوعًا من الكتان، ومكونًا من قطعة واحدة مفتوحة من أسفل حتى الركبتين..

تأملتُ يدي قليلًا.. كانت قصيرة لكنها عريضة.. تحسست ملامحي وجهي.. لا تمتُّ لملامحي السابقة أو الأصلية بصلة.

كنتُ أقف وسط ما يشبه واحة صحراوية قديمة شبه قاحلة توشك على الموت، تخترقها بضع أشجار نخيل تتحارب فروعها فيما بينها حتى تصل إلى السماء.. أسفل إحداها أرى زنجيًّا وفتاة أبنوسية البشرة يختلسان لحظات الحب، وقد افترشا بطانية زرقاء ممزقة لم تمنع التصاق الرمال بجسديهما، فصبغ صفاره تضاريس جسديهما العاريين..

ابتعدتُ بعدما رماني كلاهما بنظرة حانقة..

اقتربتُ من بركة ماء صغير.. ماعز صغير بيضاء، ومعها أولادها لم يمنعها اقترابي من إكمال شربهم، نظرت في صفحة المياه محاولًا رؤية وجهي.. كنتُ شابًا ذا جسدٍ فتيٍّ، أسود الوجه، وغليظ الشفتين.. كنتُ اقرب لأن أكون عبدًا أسود.. اللعنة! أين أنا؟! وما الذي يحدث لي؟!

أسمع صوت غناء حزين من خيمة قريبة تقف وحيدة بلا جيران.. لسبب ما سرت نحوها.. الغناء مألوف ويبعث الحنين والطمأنينة في روحي المعذبة.

في الداخل شممتُ رائحة عطنة، ورأيت عجوزًا تمتلك سواد وجهي أو ربما أنا الذي أمتلك سواد وجهها المقطوع من ليلة دامسة.. التجاعيد تملأ وجهها وتمتد على مسافة مئات الأميال حتى تصل إلى بلاد الأهرامات..كانت تجلس على الأرض وقد افترشت حصيرة منسُوجة من سُوق البردي.. تحمل بين يديها فتاة صغيرة ضاعت ملامحها وسط كومة من القماش البالي القديم.. الفتاة نائمة، تتنفس بضعف وهي تحتضن عروسة مصنوعة من البوص..

نظرتُ إلى العجوز في ودٍّ فابتسمت ابتسامة كشفت عن فم بلا أسنان جاف اللسان.. تناديني باسم (ايبزيم) ثم تطلب إليَّ الجلوس بجوارها..

اتحسس رأس الفتاة الذي يصلح لأن يكون موقد طعام من فرط سخونته.. أسألها عن صحتها وأنا أعلم الإجابة مسبقًا.. تخبرني بأنها ما تزال مريضة بشدة..

أُخرجُ من بين ملابسي لفافة صغيرة.. أفتحُها فتظهر لفة خبز طيب الرائحة، ملفوف داخل جزء من سعفة نخل.. تتناولها مني العجوز ثم تفتحها في إناء نحاسي به قليل من الماء النظيف.. تضع بعض اللُّقيمات في فم الفتاة، فتبتلعها تلك الأخيرة بصعوبة، وهي ترمقني بضعف.. أقبلها وأخبرها أنها ستكون بخير.. فقط نظرة إليها، ثم تذكر وجهي؛ لأدرك أنني والدها، وأن تلك العجوز هي والدتي..

تخبرني أنهم يحتاجون إلى ماء نظيف، بدلًا من ماء البركة الذي أصاب ابنتي بالمرض، وأيضًا طعامًا ودواء..وأنه لم يعد من الممكن البقاء في تلك الواحة التي تموت.. أنا لا أملك شيئًا، والحزن والعجز اللذان ضرباني، ختما على جبهتي بذلك.

تطلب إليَّ أن أذهب إلى (إيفرشام) كبير تجار المدينة الوردية العظيمة.. لا أفهمُ ما تقول.. لكن على ما يبدو أنني من صلبه.. الفرع الأسود الذي يأبي الاعتراف به

تضع العجوز خرقة بالية، داخل إناء نحاسي آخر اسودت مياهه، ثم تعصرها، قبل أن تضعها فوق جبهة الفتاة، التي تأوَّهت بوهن وهي ترتعش..

أخبرها بأنني سأذهب الآن.. تحذرني من قسوته وأن ألتزم بأدب الحديث معه..

أخرجُ لا أعرفُ طريقي، فقط أنا أسير وسط الصحراء وكأني المخلوق الوحيد الباقي على قيد الحياة في هذا العالم الصحراوي القاسي.

موكب ضخم من النياق الحمر، أراها على مرمى بصري، تتحرك باتجاهي بهوادة، وعلى جوانبها أجولة ضخمة تكتظ بالبضائع المختلفة، يحيط بها فوق الخمسين من الحراس الذين يركبون الخيول القوية والمدججون بالحِراب والسيوف، بينما يسير بجوارهم العبيد الذين يتولون أمر النياق وخدمتها.

حين مروا من أمامي، اكتفى الحرس برمي بسهام الاشمئزاز والقرف بعد أن تفحص أحدهم ختم الحرية المختوم بين عظمتي كتفي.

انتظرت حتى سبقوني بمسافة كبيرة ثم تتبعت خطاهم.. كانت الشمس حارقة، والرمال تبدو كصفيح ساخن تُشوى فوقه قدماي العاريتان، اللتان امتلأتا بالجروح، وقد خلعت أظفار قدمي، وبدت تنزف بلا توقف..

مزقت كم جلبابي، ثم صنعت منه سيورًا لففتها حول قدمي كالحذاء.. حلٌّ مؤقت لكنه كَفَلَ لي بعض الراحة.. بالرغم من الحرارة الرهيبة فلم أكن أشعر بالعرق وهو يتصبب مني.. كان يتبخر قبل على الفور في ظاهرة مدهشة تاركًا وراءه ملوحة تأكل في جلدي.

أفكر الآن أنني لم أخض صحراء من قبل.. لكن لو كان هناك طريق يؤدي إلى الجحيم فلا بد أن يكون ذاك..

استمررتُ أعاني، وبين الحين والآخر كنتُ أستريح وأقوم بتمزيق أجزاء أخرى من جلبابي وألفُّها حول جروحي..

قبل أن تغرب شمس اليوم الثاني، ظهرت بوابة المدينة العظيمة المحفورة في الصخر، والمختبئة خلف جبلين شكَّلا لها درعًا يحميها من الغزاة.

عبرتُ في البداية ممرًّا صخريًّا ضيقًا، أرضيته مبلطة ببلاطات حجرية، وقد زُينت جوانبه بمنحوتات تمثل الآلهة..

توقفتُ أمام البوابة التي يحرسها رتل من الرجال قساة الوجوه، ضِخام الحجم.. فتشني أحدهم بعناية وتفحص ختم الحرية، ثم لكزني وهو يدفعني للدخول.. حدقت في ثلاثة رؤوس مقطوعة لعبيد سود، تأكلها الغربان، معلقه فوق رماح البوابة، تُركت عِبرةً وتحذيرًا..

في الداخل انخرطتُ وسط الزحام لاكتشف أن المدينة مركز تجاري وخليط من أصناف وجنسيات متعددة..

أول شيء اكتشفته أنني لست الوحيد الحزين أو البائس.. البؤس هنا يرتع كأسد جائع وسط سرب غزلان هزيلة.

أرى مدرجًا رومانيًّا منحوتًا داخل صخر رملي رمادي، ويتسع ربما لثلاثة آلاف شخص.. بالقرب منه توجد مجموعة من القبور التي نُحتت كذلك في الصخر، وأمامها مباشرة مذبحان، أحدهما دائري الشكل تُقدَّمُ عليه القرابين، والآخر مستطيل يطوف الناس من حوله..

مُنادٍ من بعيد حنجرته تستحق أن تنال الإعجاب تنفجر بنداء

الاستعداد للحرب.. هرج ومرج مع فوضى عارمة تضرب كـل شيء في نفس اللحظة..

النساء يحملن أطفـالهن ويهـرعن نحـو المنـازل.. الأبـواب توصـد بإحكام.. الرجال يرتدون لباس الحرب وسط دعوات النصر التي تسبق خطاهم.

صدمني العديد من المحاربين، وكادت أقدامهم أن تـسوي وجهـي بالأرض بعد أن سقطتُ..

تسللتُ إلى ركن خالٍ ووقفت.. أرى القافلة التي كنتُ أتبعهـا يـتم تفريغ حمولتها على الأرض في منتصف باحة السوق.. التفَّ مـن حولهـا التجار يغالون في الأسعار فيما بينهم.. بعـض حـرس الـسوق يحـاولون تنظيم التجار ومنع حدوث المشاجرات وسط صراخ وتناوش بالأيـدي والألفاظ.. شاهدت طوابير الشحاذين والفقـراء طـالبي الهِبـة.. تـسلل بعضهم وسط الأقدام يحاولون خطف ما يسقط عـلى الأرض مـن بقايـا قمح أو غِلال.. طاردهم أحد الحراس بعـصا حديديـة، فلـق بهـا رأس أحدهم، قبل أن يتركه يغرق في دمائه ويكمل مطاردة الباقين.. كـانوا في طريقهم نحوي وربما أضيع بينهم فيتم سـحلي أو كـسر دمـاغي كـما رأيت.. هنا العقاب حسب لون البشرة ومدى قربها أو بعدها مـن لـون اللبن الحليب..

غادرت ركني، وانزويت خلف جذع شجرة حادة الأفـرع، انفجـر منها عش دبابير هائج قرر أن يخوض معي حربًا ضروسًا..

جريت مبتعدًا تطاردني أذنابهم.. أفاجأ بالحارس أمامي يرفع عصاه الحديدة التي تلوثت بالدماء.. حاولت تفادي الضربة وأنا أحاول العودة للخلف.. تلقيتها فوق كتفي ورنت بجوار أذني وهي تحتكُّ بها.. لم أترك لنفسي الوقت أو رفاهية الإحساس بالألم.. أخذتُ شارعًا آخر ولم أتوقف حتى أصبحت وحيدًا، لكنني كنت ما زلت قادرًا على مشاهدة السوق وحلقة البيع التي ما تزال تغلي حتى باتت على وشك الانفجار..

توقف الزمان والمكان على نحو لم أره من قبل.. أراه يختال وسط عباءته الحريرية الواسعة والتي تم جلبها من إحدى قصص ألف ليلة وليلة..

أبي.. هكذا نطقتُها. الأنف.. اتساع العينين.. الشعر الطويل.. حتى الفم والابتسامة التي تنحرف نحو الجانب الأيسر.. كلها ورثتها عنه.. فقط لون البشرة هو ما يفصلني عنه.. أمي نالت حريتها بعد أن أنجبتني.. هكذا كان العرف.. لكن هل يعترف بي أم أكون بالنسبة إليه مجرد عار أسود يحاول أن يمحوه؟

يأمر أصحاب القافلة بعدم البيع، والتجار بأن يتوقفوا عن الشراء.. الكل ينصاع لأمره في الحال وبلا اعتراض.. كان هو كبير التجار (إيفرشام)، كما أخبرتني أمي.. يتولى أمر البيع وتوزيع البضاعة كيفما ارتأى وكيفما شاء معتمدًا على أصول التجارة التي سنها هو منذ سنوات ليست بالبعيدة..

انتظرت حتى انتهى، ثم تتبعته محاولًا حصر التحيات التي راح يتلقاها احترامًا وتعظيمًا أثناء سيره..

راودتني نفسي أن أنادي عليه، لكن العواقب عندها ستكون - بلا ريب - وخيمة ووبالًا عليّ.. سيستشعر عندئذ بالحرج وقد يقطع أي أمل لي في الحصول أو اكتساب عطفه.. ربما لو حدثْتُه بمفردنا لاختلف الأمر.. هذا ما أشعر به ويخبرني به حدسي.

مررت من أمام محل خبيز.. رائحته تسللت إلى أمعائي التي التصقت بباطن ظهري.. لم أتناول الطعام منذ يومين كاملين.. كذلك لم أعد أهتم بصنع الرقاع لقدمي التي وُئدَ داخلها الإحساس.. لكنني قوي.. أمتلك القوة والعزم.. جسدي ما زال قادرًا على التحمل وأكثر.

لاح أمامي قصر إيفرشام.. شيء آخر أسطوري من قصص الخيال مكون من طابقين يميزه شرفة أمامية واسعة تحيط بها أعمدة لها تيجان تحمل أسودًا مجنحة..

توقفت أمام بوابته العريضة.. بجوار البوابة كان هناك زير من الفخار له غطاء خشبي ووُضِعَ فوقه كوب نحاسي صغير.. مددت يدي لأتناوله بلهفة حين استوقفتني يد أحد الحراس، وقبضت على ذراعي، ثم دفعني إلى الوراء بقسوة.. مد يده وتناول الكوب ثم غرف منه غرفة صغيرة من ماء الزير وناولني إياه طالبًا إليّ الدعاء والتبرك لصاحب

الماء.. كررت سيلًا من الدعاء والتوسل للآلهة من أجل إيفرشام بعدد قطرات الماء التي في الكوب.. حين رفعت الكوب نحو فمي اصطدمت عيني برأس زنجية معلق فوق أحد حراب البوابة، والذباب يرتع داخل مقلتيها.. لا أعرف إن كان ذلك نوعًا من أنواع العقاب أو الوجاهة الاجتماعية أو حتى ربما الزينة..

تجرعت الماء البارد الذي نزل معدتي يطفئ سخونتها ويتغلل في عروقي بدلًا من دمائي التي جففتها الحرارة..

عندما انتهيت خطف مني الحارس الكوب وأمرني بالرحيل.. لم أجرؤ على طلب الدخول.. خشيت أن يضرب عنقي.. لدى شعور أنه يتوق بشدة لفعل ذلك لولا أنه يخشى أن تلوث دمائي البوابة.

من خلف نافذة قريبة شاهدت امرأة تشير لي بأن آتي من الناحية الأخرى.. من ناحية باب العبيد.. لا أدري أين؟ هو لكنه قطعًا سيكون حيث أشارت..

حين وصلتُ كان هناك باب صغير له حلقات معدنية سوداء، يختفي وراء تكعيبة من الأشجار..

وقفت أمام الباب أفكر أن اضرب الحلقات ببعضها لكن قبل أن احسم أمري فتحت لي الباب.. وجهها يتهلل وكأنها تعرفني وربما تعشقني.. شحب وجهها حين رأت بعض عابري السبيل يشيرون نحونا.. تذكرت مشهد رأس الزنجية المعلق.. هل يكون مصيري في

النهاية كهذا المصير.. جذبتني مسرعة وهي تغلق الباب لتتوارى عن الأنظار المتطفلة.. كانت تحمل وجه اسمر دقيق الملامح يسكنه عالم كبير من الجمال الأخاذ، ترتدي فستان من الحرير الأسود يكشف أغلى مفاتنها، متعة ولذة للناظرين..

برق اسمها في ذهني.. البنت.. هكذا تُدعى، وهكذا ما زالت.

تتعجب من جرأتي على القدوم مرة أخرى.. إذن لقد كنتُ هنا من قبل.. تخبرني أن السيد بالتأكيد لن يكون مرحبًا بي، لكن الحرب القادمة قد تضعني في مكان ما يختاره السيد..

أخبرتني أنه يجلس في شرفة البرج الثاني، ثم لثمتني قبلة أذابت قلبي قبل أن تذوب هي وتختفي من أمامي..

لا أذكر أو أعلم أين هو البرج الثاني.. أتوخى الحذر وأنا أجوب طرقات القصر التي بلطت برخام أبيض مموج بيني..

حين كدت أن أرتقي السلالم نحو الأعلى، نبهتني دقات كعوب ممتزجة بشخللة خلخال تهبط ناحيتي.. تواريت خلف مصطبة صغيرة عليها تمثال من الجص الملون على شكل امرأة ترضع ذئبًا من ثديها..

رأيت شابًا لا يتجاوز العشرين من العمر، أبيض، طري، ملامحه أقرب للأنوثة منها للرجولة، ذهبي الشعر، تورّدت وجنتاه من فرط الصحة والراحة، ويرتدي قرطًا ذهبيًّا كبيرًا على أذنه اليمنى.. كان يضع يده حول خصر امرأة صماء الغوايش، عظيمة العجز، مصقولة

العوارض، وتزن طنًّا على الأقل.. كتلة من اللحم الأبيض الناعم الشهي وفوق صدرها جثم نهدان لا يكفان عن الحركة واللعب، يكفي من نعيم الدنيا أن تمرح معهما ولو لدقائق..

تضحك بخلاعة وهو يربت مؤخرتها

اقتادها نحو غرفة جانبية.. ترك بابها مفتوحًا.. كنت محقًّا في ظني كونه أنثى أقرب منه لرجل.... كان ينظر إليها بشهوة عارمة دون أن يدك حصونها كما يفعل الرجال.

صعدت نحو الأعلى حتى وصلت بالمصادفة إلى حيث إيفرشام.. كان يجلس فوق المقعد الوحيد الموجود داخل شرفة البرج، يمسك كأسًا ذهبية، يحدق في الفراغ بغير معنى، ويفكر ربما في حل مشكلات الكون..

لم يبدُ عليه أنه شعر بي.. ترددت وأصابني الخوف من أن أقطع حبل تفكيره.. إنه والدي.. أبي.. هكذا رددت داخل أعماقي محاولًا انتزاع الخوف من نفسي.. دفعت قدمي دفعًا حتى أصبحت بجواره تمامًا ثم تنحنحت وناديته بأبي.

خرج من تفكيره ورماني بنظرة غضب.. لم يبدُ عليه الضيق.. فقط الغضب.. لا أعلم إن كان ذلك بشارة خير أم شر.. رميت نفسي تحت قدميه أقبل حذاءه.. لاح شبح ابتسامة ثم عاد ينظر للفراغ.. تركني أضع خدي على ركبته وأتمسح بها..

أرتشف من كأسه رشفة ثم رمقني للحظات طالت كثيرًا قبل إن يعطيني ما تبقى في الكأس.. تجترعت ما فيه.. عصير عنب أحمر محلى بعسل النحل.

طلبت إليه أن يلغني الأمان ويأذن لي بالحديث.. خلع مركوبه وهوى به على رأسي.. افترشت الأرض كجثة متعفنة.. أتوسل إليه أن يمنحني حبه.. يطلب إليَّ أن أخرس وهو يستمر في ضربي.. حين تعب جلس على مقعده يلهث.. نظر نحوي.. زوى ما بين حاجبيه حتى كادا أن يتلاقيا في نقطة واحدة.. يفكر في شأني.. يدرس ويعيد التفكير مرارًا وتكرارًا قبل أن يقرر أمرًا ما..

مد يده وساعدني على النهوض ثم أخبرني بما كان يدور في عقله.. كان كلامًا خطيرًا أصغيت له بكامل حواسي حين انسحبت مني روحي فجأة وتوقف الزمن، ضربني السحر من جديد وعاد كل شيء يختفي وأنا أهوي داخل دوامة سوداء.. ملعونة!

* * *

الفصل الخامس عشر

ثوانٍ لا أستطيع أن أحرك ذراعي.. عاجز تمامًا عن الحركة بينما ثقل يجثم فوق صدري ورمال مالحة تملأ حلقي وتحرق عيني جعلت الرؤية تتوه مني..

ارتجف جسدي بشدة حين ميزت وجه رجل عابس يحدق فيَّ ببرود بينما سيفه موضوع أسفل عنقي استعدادًا لجزه ووضعه فوق أحد حراب بوابات المدينة.. بعدها استوعبت الموقف.. كنت داخل ساحة تدريب على الحرب.. كان صليل السيوف والغبار وصراخ المدربين يشكلان لوحة كلاسيكية ونموذجًا مصغرًا لمعركة على وشك الحدوث بعد بضعة أيام..

نهض المدرب من فوق صدري لأسعل بشدة وأبصق بعض الدماء على الأرض.. لوَّحَ بسيفه في اتجاهي وهو يمنحني بعض النصائح..

(في الحرب ثمة أمر واحد أهم من القتل، النجاة.. لنزع الخوف عنك لا بد أن تخيف الآخرين).

كان المدرب ضخم الجثة، أشرم الأنف، قبيح الوجه، عفن الرائحة يحب أكل اللحم الأحمر غير المطهو.

ناولني سيفي ودعاني إلى مهاجمته.. أرى الفتى الأبيض الذي علمت أنه أخي يجلس وحيدًا في ركن رطب مظلل.. صار المكان يدور من حولي كطاحونة هواء أنا مركزها.. أتبادل الكر والفر مع مدربي وأنا أدرس المكان جيدًا مفكرا في الهرب.. هناك على أبواب الساحة يقبع صنم يحظى بسحر غامض.. كان على هيئة ثور أحمر مقطوع من الصخر، يتوجه ناحيته المحاربون بين الحين والآخر لالتماس البركة منه..

حين انتهى النهار جلست مع أخي.. صرت أعلم طبيعة المهمة التي أوكلها لي إيفرشام.. حماية ابنه المدلل وفداؤه بروحي لو اقتدى الأمر.. المقابل الراحة لأمي ولابنتي، ولي في حالة العودة سالمًا.. بالرغم من مكانته داخل المدينة فقد كان لا يملك القدرة على عدم الزج بابنه في تلك المعركة القادمة.. الأمر يتجاوز الخوف ويتعلق بالشرف والكرامة، لكنه كأي أب يريد نجاة ابنه.. يمكن القول إنني حارسه السري الخاص.. أتذكر وقوفي أمامه وأنا أتعهد له بدمائي..

لكن كلما توغلت في التدريبات كان يقيني يزيد بأن مسألة بقائي حيًّا أمر صعب، فما بال الحال بحماية أخي الذي لن يكون بقادر على الصمود في المعركة أكثر من بضع دقائق إذا ما استمر على رعونته وحالته الطرية التي تغري زملاءنا في أن يفعلوا معه الأفاعيل القبيحة!

كانت الأقاويل تتناقل كأسطورة منسوجة حول قائد الأعداء الذي تتراجع الجيوش خوفًا عندما يسمعون اسمه.. هناك من يقول إنه استدعى الشيطان نفسه من على أبواب الجحيم حتى يحصل على قوته.. يضع ريشة سوداء فوق عمامته ويحرسه ملاك الموت

حين أتى الليل تناثرت أجساد الجنود داخل الخيام الضيقة كأكوام من اللحم الدافئ..

نام أخي وبجواره نمت تقاتلني أحلام الموت والحياة.. فتحت عيني على حركة متسللة تقترب منا.. رأيت أشباح خمسة رجال يحيطون بنا.. حاولت المقاومة.. ضربة فوق رأسي هزتني وتركتني بين الوعي واللاوعي.. أرى اثنين منهما يكبلانه بسهولة بينما شرع ثالث في قلبه على بطنه ليتناوب الخمسة مضاجعته على نحو بشع وقد بدا لي مستسلمًا أو مستمعًا، بعدها تهاويت قبل أن يرفس ثور أحمر وجهي ويقذف بي.. إلى أرض العدم.

* * *

فتحت عيني تلك المرة فوجدت نفسي فوق فرس أسود أطوح بسيفي ذات اليمين وذات الشمال.. الدماء والأطراف تتطاير هنا وهناك.. رحى المعركة تشتدُّ وأنا أجول كالوحش بين الأعداء أجري سيفي بينهم.. صرت لا أشعر بجسدي من فرط الطعنات التي تلقيتها.. تذكرت أخي بعدما أوشكت أن أنساه.. تركت كل شيء وبحثت عنه

وسط غبار المعركة.. ألمحه قريبًا مني يرتعش من الخوف محاولًا النجاة.. طفل بائس بلا ريب يحتاج لأحد أن يريحه داخل قبر.. بالرغم من كرهي لضعفه فإنه يظل أخي ويظل - وهذا الأهم - تذكرتي الذهبية لدخول عالم الأسياد..

فارس مهيب الطلعة يضع فوق رأسه ريشة سوداء يجندل الفرسان بلا رحمة.. كان هذا هو سيد الأعداء المخيف.. لم تكن الأقاويل التي سمعته عنه لتوفّيه حقه.. كان - بلا شك - أسطوريًّا لا يُقهر.. الكثيرون يحاولون الهرب من أمامه..

فجأة انكشف الغبار عن أخي وصار أمام سيفه.. سيصبح الرأس المقطوع التالي هو رأس أخي إذا لم أتصرف..

مزقت معدة أحدهم بسيفي وتركته ينازع الموت فوق فرسه.. سيد الأعداء يرفع سيفه.. أخي يرتعد وهو يتابع السيف الذي يسابق ملك الموت نحو عنقه.. اصطدم سيفي بسيف سيد الأعداء قبل أن يصل لهدفه.. نظرت في عينه.. ظلام وموت.. تراجع كلانا في تحفز.. ثم دوى صليل تلاقي سيفينا

* * *

شعرت بألم شديد في رسغي حين تبادلت الضربات والطعنات معه.. أخي يتراجع ويهرب تاركًا إياي أواجه أبشع مخاوف المحاربين..

ضربت بسيفي مرة أخرى.. استقبل ضربتي بمهارة على حد سيفه، ثم أعادها لي طعنة غادرة، كادت أن تخترق قلبي لولا أن تفاديتها بقليل من المهارة وكثير من الحظ.. اشتد النضال بيننا.. بدا وكأن ساحة الحرب قد اقتصرت على كلينا.. أسقطني من فوق فرسي، بعدما نكز حصاني بمهماز حذائه، قبل أن يضرب وجهي بالسيف، فتنكسر رباعيتي وتخترق حلقات خوذتي المعدنية لحم وجهي..

تفاديت حوافر فرسه وهو يحاول دهسي، بأن ألقيتُ نفسي جانبًا.. ابتلعت الغبار داخل معدتي حين نهضت..

أمسكت ساقه ثم جذبته معي محاولًا تفادي طعنة جديدة منه..

سقط فوقي فشعرت بنغزة غير مؤلمة في صدري مع خدر لذيذ ضرب عقلي..

نهض سيد الأعداء من فوقي وهو يجذب سيفه من صدري.. أخرجه ببطء جعلني أشهق وجعل روحي تستعد للرحيل..

رفع سيفه وطوحه ناحية عنقي.. أغمضت عيني منتظرًا نهاية كنت أتوقعها لكنها تأخرت..

وحين تأخرت أكثر فتحت عيني.. رأيته يشتبك مع مقاتل آخر.. لم يستمر قتالهما كثيرًا.. أطاح بعنقه سيد الأعداء بعد أن أصيب في بطنه بضربة سيف، ثم عاد يلتفت نحوي.. كنت انتهزت الفرصة وتناولت

سيفي، وقبل أن يستوعب ما يحدث ضربت عنقه.. طار رأسه في الهواء دون أن يجد الوقت للصراخ.. رأسه تدهسه حوافر الخيول وتصنع منه خليطًا دمويًّا مُخيفًا..

صرخت من الفرحة..

ثم صرخة أخرى.. شبه صرخة.. ذهول.. توقف كل شيء فجأة في نفس الوقت بلا اتفاق مسبق.. الجيشان.. الهواء.. الطير.. الكل غير مصدق.. الأنفاس لاهثة.. العيون تنظر إلى الجسد الذي ما زال واقفًا بلا رأس وتندفع من عنقه شجرة دماء ممتدة الفروع، قبل أن يتهاوى أمامي ككتلة صلبة واحدة..

أمكنني أن أرى وشم ثعبان أسود مخيف يتحرك فوق ساعده وأنا أحاول أن أظل واقفًا.. لا بد أن ذلك هو هذيان الموت..

سقطت بجوار سيد الأعداء.. دمائي تختلط بدمائه..أسمع غناء أمي الحزين.. ابنتي تمد لي يدها بلهفة.. رفعت يدي ألامس يدها.. حينها اصطدمت حدوة حصان برأسي وضربتني حربة غادرة، تهاوى بعدها الكون من فوقي واحترقتُ بنيران الشمس ثم.. انسحقتُ.

* * *

كانت السماء رمادية وقد أوشكت شمسها على الغروب..

سرب الغربان الأسود، الذي يدور فوق رأسي، مع نعيقه الممتزج

بفحيح مجهول المصدر، هو كل ما استطعت استيعابه في اللحظات الأولى عندما استفقت..

كنتُ مُلقًى وسط مئات الجثث المتراصة على امتداد بصري، والتي يغرد سرب الموت بينها بحرية، وقد اختلطت الدماء بالأعضاء الممزقة والأمعاء المهروسة، بالإضافة لسوائل لزجة، نتنة الرائحة، تسيل من الموتى..

أمامي غراب ينتزع جزءًا من أمعاء جثة ويحاول الاستئثار بها، قبل أن ينشغل في شِجار مع غراب آخر حولها، فتتمزق بين منقاريهما وتسيل منها بقايا حمراء.. الفحيح الذي سمعته لم يكن كما تخيلت لثعابين، كان لذئاب تزوم وهي تتجمع استعدادًا لمأدبة طعام لا تعوض.

تنفست بصعوبة وأنا أمسك الحربة التي ما زالت تخترق الجانب الأيمن من صدري..

تحسست ملمسها جيدًا.. استجمعت قوتي وانتزعتها.. صرخت من الألم فاهتزت الأنحاء وقفزت بعض الغربان مذعورة بينما جذبت انتباه الذئاب التي ردت عليَّ بعواء طويل يحمل معنى أن أستعد للهرب أو الموت..

لامست الثقب الذي خلفته الحربة وراءها.. ثقب يكفي اتساعه أن يسمح لروحي ولروح دستة رجال غيري بالخروج..

نهضت بصعوبة محاولًا كتم دمائي التي لم أظن يومًا أنها بمثل هذه الكثرة أو الغزارة..

أسير وسط أكوام الجثث التي رفض أن يدفنها من انتصر ومن انهزم..

شعرت بالأرض تميد من حولي قبل أن أُخرج ما في معدتي من سوائل بجوار جثة بُقرت بطنها حين تأكدت من هوية صاحبها.. كانت جثة مدربي أشرم الأنف..

عدت من جديد أسكبُ على الأرض ما بقي في معدتي من سوائل حارقة ألهبت حلقي، لكن هذه المرة أخرجت كل خوفي معها.

يمكنني سماع صوت أنين المجروحين الذين تُركوا للذئاب ترعى فيهم.. لا مكان للضعيف أو المريض.. شريعة الغاب.. الشريعة الأقوى والتي صمدت على مدار الحضارة الإنسانية.

صوت واهن مبتور الحروف ينادي عليَّ بيأس.. التفتُّ ناحيته.. تذكرتي الذهبية ما تزال موجودة وإن كانت على وشك الضياع للأبد.. اقتربت من أخي الذي كان مثخن الجراح مبتور الذراع اليمنى.. عاونته على النهوض.. يطلب الماء.. ربما قدرك أن تموت عطشان وكذلك أنا.. لكننا سنقاوم للرمق الأخير..

ابتعدنا بمسافة كافية عن أكوام الجثث حين لاحت في الأفق خيوط شمس النهار التي ظهرت من خلف قِمم الجبال الشاهقة..

الحرارة عدونا الآن بلا شك.. دخلنا نحتمي داخل تجويف صخري.. كل ما أمكنني فعله تضميد جراح أخي بما توفّر من قماش لدينا..

انتظرت حتى قدوم الليل مرة أخرى.. جروحي اندملت تمامًا واختفت آثارها على نحو غريب.. تركته وحيدًا.. لم ألتفت لتوسله لكي أظل معه.. لدي فيض هائل من الطاقة يسري في عروقي..

عدتُ إلى جثث القتلى من جديد.. فتشتها جيدًا.. أخذت سيفًا قصيرًا ضربت به رأس ثعبان حاول لدغي..

عثرت على قربة ماء أوشكت على الجفاف.. عدتُ من جديد.. اقتسمت جرعة الماء الوحيدة مع أخي.. تناولنا الثعبان الذي كفل لنا ليلة بلا جوع..

أُشجِّعُ أخي وأنا أحمله.. نخترق الصحراء ليلًا.. كنت أعجز عن إيجاد طريق مباشر للعودة.. أخي الذي يملك قدرًا من العلم أرشدني مستخدمًا علامات النجوم..

كل حيلة أو فكرة تعلمتها لجأت إليها من أجل البقاء.. في النهاية وصلنا إلى ضفتي نهر صغير.. ظللنا بجواره يومين نتزود من مائه ونتغذى من ثمر أشجاره..

لمحت في اليوم الثالث فرقة كشافة من الأعداء تتبع آثارنا.. اندفعت

لاهثًا أحمل أخي، وأنا أشق طريقي محتميًا بالأشجار.. لم أعبأ بالفروع التي راحت تضرب وجهي وتصنع فيه شقوقًا دموية..

نظرت خلفي وأنا أنفخ الهواء مثل حصان انقطعت أنفاسه..ما زالوا في أعقابي.. أستطيع أن أسمع صدى خطاهم..

حفرت حفرة صغيرة تتسع لي وله، وغطيتها ببعض الفروع، ثم اختفينا داخلها..

انتظرتُ حتى تأكدت من ابتعادهم، وسقطت في نوم عميق، تراودني خلاله بعض الرؤى الغريبة.. أجسادًا تحترق داخل قدور نحاسية من الزيت المغلي.. عبيدًا سودًا يسبحون داخل بحيرة دماء.. ثعبان أسود يلتف حول عنقي ثم يغوص داخل ظهري.. لا بد أنني أتخيل كل هذا..

تركت كل خوفي خلفي وخرجنا مع أولى بشائر أشعة الفجر حين لمحت أمامي وشم الثعبان المخيف مرة ثانية.. هذه المرة كان يتحرك فوق ساعدي.

* * *

رايات النصر الملونة ترفرف فوق قصر إيفرشام..

الإماء يضربن بالدفوف والمزاهر..

أسير بجوار أخي منتشيًا وأنا أرى الإعجاب في العيون بعودتنا

وبأخي الذي صار بطلًا.. نتوقف داخل ساحة القصر.. العشرات يحيطون بنا.. إيفرشام يمسك بسكين راح يشحذ نصله فوق قطعة رخام صلبة.. تحت قدميه أحكم وَثاق عشرة من العبيد نصفهم رجال والنصف الآخر إماء.. أرى من بينهم الزنجي الذي كان يضاجع الفتاة الأبنوسية أسفل النخلة.. هي أيضًا كانت موجودة.. عيناها شاخصتان نحو السماء وشفتاها ترتعشان بتوسل للآلهة وهي تتماوج كسنبلة قمح يحركها ريح..

يجلس أخي فوق كرسي عظيم ثم يدعو للآلهة ويشكرها على هبتها العظيمة..

أجلس تحت قدميه وتحت سقف عظمته..

يمسك إيفرشام رأس أول العبيد، يحكم موضعها تحت حذائه ثم يجزها.. تتلوى الذبيحة على الأرض.. تتهلل الأصوات وتعلو المباركات حتى تهتز جدران القصر.. يلقي بالرأس تحت قدم أخي الذي ركلها أمامه.. بقية العبيد يرتعشون وهم يستعدون لتسديد النذر الذي نذره إيفرشام للآلهة.. يتولى شقيقي بعدها هذا نحر الرقاب التسع الباقية.. بين كل ذبيحة وأخرى كان يتم شحذ السكين.. حين انتهى تمرغ في بركة الدماء التي تكونت..

تتسع ابتسامة إيفرشام ويرفع يده من جديد بالدعاء للآلهة..

تدخل زوجة أخي.. طن اللحم الأبيض الذي يسير بصعوبة..

شممت عليها رائحة الخمر وعرق الرجال.. تغرف الدم بيديها وتسكبه فوق رأسها ثم تمسح به وجهها وصدرها وهي تصرخ بهستيريا.. لغة الجنون اجتاحت الجميع.. فقدوا الإنسانية والحيوانية معًا.. صارت ساحة القصر مرتعًا للهمجية البشعة..

ابتعدتُ عن المشهد قليلًا وأنا مذهول من فرط الهول الذي أراه.. كمسلوب الإرادة، تابعت خيطًا طويلًا من الدماء يسيل من رقبة الأبنوسية، يتسلل بين الأقدام كثعبان يبحث عن طعامه، قبل أن يجد ضالته في قدمي الحافية، حين لامسني وأحسست بسخونته تاه كل شيء من أمام عيني مرة أخرى، ثم سقطت داخل بركة دماء تسبح فيها فتاة أبنوسية.. مقطوعة الرأس.

* * *

الفصل السادس عشر

انغرست قدماي في طمي البركة..

أشاهد الشمس معلقة على يميني حمراء محتقنة..أدرت رأسي لأنصت.. لا أسمع سوى وسوسة الرياح..

أرى الماعز البيضاء وقد ضمرت ضروعها والذباب يحوم من حولها.. كانت تشرب من بركة الماء التي كادت أن تجف، وبجوار قدميها رأيت عظام أولادها الذين هلكوا..

أشم رائحة شواء تملأ الجو بينما عمود دخان أسود يتصاعد من بقايا الخيمة التي أعيش بها..

هرعت نحو الخيمة كالمجنون أنبشها غير عابئ بما يحرقني.. أرى جثة ابنتي وأمي وقد تفحمتا تمامًا.. ما تزال أمي تضم ابنتي داخل حضنها.. يا للميتة البشعة! لماذا؟! لماذا؟!

سحبت الجثتين وجلست بجوارهما أبكي وأضعُ التراب فوق

رأسي.. الحزن والألم باتا كشهب نارية تهوي من السماء إلى داخل صدري وتصنعان فجوة واسعة لا قاع لها.

لمحت رجلًا مخيف الطلعة يجر خلفه بغلين ضخمي الحجم.. رأيت وجهه وقد تحول إلى ثلاثة وجوه بسبب الدموع..

يخبرني أن ذلك من فعل إيفرشام حين ظن أن ابنه قد قُتل معي.. يخبرني أيضًا كيف سمع الجميع توسل أمي وابنتي وبكاءهما وهما يحترقان داخل الخيمة، لكن أحدًا لم يجرؤ على مساعدتهما..

عاونني بعد ذلك في حفر قبر عميق، وضعتهما فيه..

لم تطاوعني يدي على أن أُهيل التراب عليهما.. ضحكات ابنتي وبراءتها لا يمكن أن أدفنها بسهولة.. حلمت لها بالكثير.. لم يكن من بينها أن تموت.. الابن يدفن الأب وليس العكس.. هذا مخالف لنواميس الكون.. لماذا يا معبودي كتبتَ عليَّ ذلك؟ لو كان للموت عنق لضربته بلا رحمة..

«يفرقنا موت ويجمعنا موت»، هكذا واسني الرجل، ثم رحل وتركني قبل أن تنتزعني عاصفة وتهوي بي في قعر بئر.. جافة.

* * *

حين أفقت هذه المرة كانت السياط تمزق ظهري والدماء تغرقني بينما يتم سحلي على وجهي.

ذكريات متقطعة عما حدث تمر بسرعة..

رؤوس العبيد المذبوحين معلقة على أبواب القصر.. إيفرشام يصرخ في ويصفعني.. يحتقر فكرة أن يكون له ابن مثلي من صلبه.. أحتدُّ في الكلام معه وأهاجمه.. الحراس يكبلونني حين أمرهم بذلك.. يتم جلدي خمسين جلدة.. سياط نارية تقطع في لحم ظهري وأنا أتوسل إليه بكل عزيز وغالٍ..

حين عدتُ أذكر له أنني ابنه، مد يده داخل فمي ثم قطع لساني وهو يصرخ وقد زاغت عيناه من فرط قسوته..جحظت عيناي حتى كادتا تخرجان من محجريهما.. تلويت على الأرض من الألم.. لم يمهلني رفاهية الألم.. كان ما يزال يمسك الجزء الذي اقتطعه من لساني.. حشره داخل فمي قبل أن يجعلني أطبق عليه وابتلعه.. شعرت بعدها بخنجره يضرب جانبي الأيسر من ضلوعي ويكاد يبلغ قلبي.. جرني بعد ذلك بنفسه من قدمي وأنا بين الحياة والموت حتى ألقاني داخل زنزانة ضيقة تقبع في قبو القصر.

بلا طعام أو شراب مضت الأيام..

الموت يرفض لقائي بإصرار شديد..

جروحي تُشفى كالعادة، وأسترد قوتي سريعًا وبداخلي وجد الظلام والشر مرتعًا خصبًا..

سابقًا كنتُ أعتقد أن الوحوش هي أسوأ المخلوقات.. صرت الآن أعلم أن البشر هم الأسوأ والأخطر أيضًا..

ذات يوم سمعت باب الزنزانة يُفتح..

الحارس يُفاجأ ببقائي على قيد الحياة.. لم أمهله الوقت للتحسر على عمره.. حطمت عنقه بضربة واحدة، ثم ارتقيت درجات القبو بعدما دفنت فيه روحي المعذبة إلى الأبد.

* * *

فتحت عيني على سيف في يدي اليمنى تقطرُ منه الدماء، وتحت قدمي جثة تنتفض بلا رأس، وفي يدي الأخرى رأس أخي.

كنت أقف وسط ساحة القصر.. تلك الساحة التي شهدت ذبح العبيد قربانًا للآلهة..

إيفرشام يستل سيفه صارخًا ويطوح به في الهواء، كثور هائج.. رميته برأس ابنه فاصطدم بوجهه وحطم أنفه.. توقعت أن تطرحه الضربة أرضًا لكنه كان قويًا وتماسك..

صددت طعنته بسيفي، ثم أدرته حول معصمي بمهارة لأمزق كفه ويسقط السيف من يده..

يسألني الرحمة وهو يتراجع للخلف مرتعشًا..

نقبت في روحي عن الرحمة فلم أجدها..

أخبره أن يطلبها من ابنتي وأمي حين يراهما..

أغمدت بعدها السيف في معدته.. شهق من الألم، وهو يحاول منع النصل بيده المجردة.. سحبتُ السيف، وتركتُه يحاول أن يمسك أمعاءه حتى لا تسقط على الأرض.. كان بطنه من الضخامة بحيث استحال عليه فعل ذلك.. استمتعتُ وأنا أراه يحدق في معدته وهي تسقط بين قدميه.

وصلت إلى زوجة أخي..

اقتحمت عليها خلوتها.. كانت نائمة حين هجمت عليها.. أصفعها على وجهها قبل أن ألكمها في معدتها وأطرحها أرضًا.. أجردها من ملابسها تمزيقًا.. أضاجعها من الأمام والخلف.. متعتي بلغت ذروتها حين سالت منها الدماء.. لم يعد شيء يؤلمني أو يثير شفقتي.. تتوسل لي ألا أقتلها.. بقرتُ بطنها حين انتهيت منها.. تركتها تنازع الموت.

الحرس يقتحم القصر..

إلى أين أهربُ؟ سؤال أسأله لنفسي وأنا أراهم يفتشون عني.. مصير أسوأ من الموت ينتظرني الآن بلا شك.. يمتلكون أساليب تعذيب تجعلني أفضل أن أُنهي حياتي بيدي..

وصلت إلى أعلى القصر وأنا أترنَّحُ وقد قررت الموت..

نظرت من الفتحات الموجودة على جدار بطول ضعف قامتي.. أرى في الأسفل مدينة الأسياد.. أخيرًا أنا ولأول مرة فوق هؤلاء الأسياد..

وقفت على حافة الجدار رافعًا وجهي نحو السماء.. سأصنع بقعة كبيرة من الدم والأشلاء أمام بوابة القصر.. بالتأكيد سوف تثير غضب حارس الزير.. تمنيت لو أمكنني رؤيته حينها.

الناس يبدون كنقاط صغيرة تتحرك في الأسفل.. في هذه اللحظة تراءى الثعبان الأسود أمام وجهي ينفث سُمَّه في عيني.. يرفض أن ينتهي أمره.

البنت تصرخ باسمي.. التفتُ نحوها.. وجهها يكبر ويلمع وهي تمد يدها نحوي.. قلبي يخفق لها فسرت في جسدي السعادة.. أخيرًا أرى شيئًا أحبه قبل أن أغادر هذا العالم القبيح.. تخبرني أنها تعرف مِمرًّا سريًّا يمكنني أن أهرب من خلاله..

فكرت في كلامها..

أشحت بوجهي عنها وحدَّقتُ في الأفق البعيد..

تحركت خطوة إلى الأمام.. الفراغ الهائل أسفل قدمي مباشرة.. خطوة أخرى وينتهي كل شيء..

نادت باسمي من جديد.. لم أجبها بل قفزتُ..

قفزت عائدًا إليها.. نظرت في عينيها الواسعتين لثوانٍ، قبل أن أرتمي بين ذراعيها ، حين ضربتني فجأة موجةٌ عاتية اقتلعتني من بين يديها.

* * *

أريد أن أُفرغ ما في معدتي..

كنت مُكبَّلَ اليدين والقدمين، فوق مذبح رخامي، بينما الدماء تنزف من كل موضع في جسدي، وأمامي الجلاد يشحذ أدواته ..

تعرضت لتعذيب شديد بعد أن سقطتُ أنا والبنت في يد الحرس.. لا أعلم مصيرها، وإن كان في كل الأحوال لن يقل عن الموت..

جماهير قاسية لا حصر لها تتابع ما يجري بتشفٍّ وتطلب المزيد.. هناك من ينعتني بالشيطان، شأنهم شأن رجال الدين الذين يشرفون على تعذيبي، وهناك من يصفني بالوحش، شأنهم شأن زوجة أخي التي نجت من الموت ..

رأيت البنت يتم اقتيادها بقسوة هائلة.. على وجهها آثار التعذيب والهلع الرهيب.. كانت ترتدي فستانًا من الخيش المغموس في القطران كنوع من أنواع الإذلال.. من خلفها راحت تتقاطر قطراته السوداء..

رمتني بنظرة يائسة أخيرة.. نطقت باسمي.. ابيزيم.. لم أقدر على مبادلتها النداء من فرط الألم.. لا يوجد لدي غير أن أتمنى لها موتًا رحيمًا.. لكن من قال إنه يوجد موطئ للرحمة هنا..

يرفع الجلاد البنت على عمود المشنقة.. يمزق فستانها بقسوة.. تتعرى أمام الجمع الجائع.. تلتهب أيديهم بالتصفيق.. يُلفُّ الحبل حول عنقها النحيل.. يُجذب ذراع المشنقة بغتة.. تُطلق صرخة حادة كعصفور تمزقه قطة.. تتلوى لدقائق في الهواء حتى تفارق الحياة.. تتسع ابتسامات الغوغاء..أرى جزءًا من عنقها يتمزق ببط كأن مشرطًا خفيًّا يعبث به، نتيجة لثقلها ونحالة عنقها.. تلقفها الجلاد بلهفة قبل أن ينفصل جسدها عن عنقها وتسقط.. تبرَّمَ الغوغاء وتعالَى سبابهم البذيء، فقد كانوا يمنون أنفسهم برؤية رأس مقطوع..

لم يفعل الجلاد ذلك على سبيل الشفقة.. كان يدخر نهاية أخرى لهذا الجسد المسكين..

صلبها على عمود آخر كذبيحة.. استخدم مسامير طويلة لتثبيت جسدها على العمود.. يمكنني أن أسمع صوت تهشُّم عظامها عند دق المسامير في اليدين والرجلين.. حين انتهى شق بطنها كله من أعلى إلى أسفل باستخدام نصل معقوف، ثم نزع منها أحشاءها قطعة تلو الأخرى..

اقترب مني الجلاد بعدما فرغ من إلقاء الأحشاء على الغوغاء مبهوري الأنفاس.. حان دوري وبالتأكيد هو يحتفظ لي بالعرض الأفضل والأكثر دموية..

كان الجلاد رجلًا ضخم الجثة، كثيف شعر الصدر، يرتدي قناعًا جلديًّا أسود يخفي ملامح وجهه، وإن لم يكن يخفي قسوة عينه..

قال لي شيئًا ما، لكنـي لم أفهمـه.. ربـما تكـون سُـبَّةً، وربـما تكـون مواساة.. الأقرب أنه كان يتوعدني بالعذاب..

يقلبني على بطني بعد أن نزع عنـي الـرداء المـصنوع مـن الخـيش.. يمـرر الـسكين عـلى ظهـري دون أن يخدشـه في اسـتعراض لمهارتـه في استخدام السكين..

تصفق الجماهير حين أدركت أنه على وشك البدء.. يرفـع لهـم يـده ليبادلهم التحية.. يضرب السكين في ظهري، ثم يشقه بلا رحمة.. النـصل بارد ويصطدم بضلوعي..صراخي يثير شهية المتعطشين للدماء.. دمائي تنهمر كنهر صغير.. لم أكن أتخيل أن جسدي يحتوي كل تلك الدماء.. يد الجلاد تصل إلى أضلاع صدري.. ينتزع أول ضلع ويرفعـه للجماهـير.. تهدر الأصوات.. أدرك الآن أن الدنيا تحوي ظلامًا أكثر من النـور، وأن هذا العالم لا يحتـاج إلى رجـال طيبـين، وإنـما إلى وحـوش بـلا قلـوب.. ألعنكم.. ألعنكم إلى مـا لا نهايـة.. وشَرِّي سـوف ينتقـل مـن جيـل إلى جيل.. آخر ما رأيته كانت رئتي التي انتزعها الجلاد من صدري وألقاها في الهواء، بعدها أغمضت عيني.. وتركني الظلام وحيدًا.

* * *

الفصل السابع عشر

أنا..

ما زلتُ موجودًا..

الحياة تفيض في عروقي كنهر في موسم فيضانه..

أرى جماهير لا حصر لها منتشية من الفرحة والتهليل، وأنا أقف داخل ساحة إعدام..

هتافهم كان يصنع موجة رياح بين الحين والآخر تهتز لها قواعد المذبح..

الدماء تغرق وجهي وصدري.. في يدي سكين طويل تلوث بالدماء.. على يساري جثة امرأة مصلوبة، مبقورة البطن، عيناها الجاحظتان تتابعانني باهتمام..

أمامي مباشرة، عبد زنجي قَتَلَ سيده وعائلته.. كانت جثة العبد ممزقة بعد أن انتزعت منها كل ضلوعها.. اللعين كان قوي البنيان

بطريقة لا تصدق، حتى أنه لم يمت إلا بعد أن شاهدني وأنا ألقي رئتيه النجستين في الهواء..

تعجبت لوشم الثعبان الموجود فوق ساعده الأيسر.. خُيِّلَ إليَّ كثيرًا أن الوشم يتحرك..

ارتعشت على نحو مفاجئ.. كاد السكين أن يسقط مني.. لا يمكنني تحمل سخرية الغوغاء الآن.. على نحو ما أنا بطل العرض.. تمالكتُ جأشي، ثم مسحت الدماء التي علقت فوق حاجبي واختلطت بعرق جبيني.. مَنْ قال إن القتل أمر يسير؟!

عَدَّلتُ مِن وضع القناع فوق وجهي.. أريد أن أتأكد أنه لا يرى أحد ملامحي..

قاضي المدينة يشير لي بعلامة الاستحسان..

حان الوقت لإنهاء كل ذلك..

أشرت إلى مساعدي بأن ينزل جثة المرأة..

قمت برش الملح على جثة العبد، بعدها انحنيت فوقه لأفصل الرأس عن الجسد حين لاحظت أنه مقطوع اللسان.. لوهلة اعتقدت سابقًا أنه كان يحاول أن يخبرني بأمر ما.. ربما كان يحاول إطالة دقائق عمره ليس إلا.. أكرهُ توسلات العبيد..

حينما أنتهي من كل ذلك، ستكون هناك عاهرة، سمينة المؤخرة، واسعة الكهف، تنتظرني فوق فراشي.

أفقت من شرودي بعدما انتهيت من فصل رأس العبد.. غرزت الرأس فوق رمح طويل ثم رفعته عاليًا للعيان.. ضربتني ارتعاشه قوية في ذراعي، لم يلاحظها سوى مساعدي، الذي رأيت الحيرة في عينه.. هربت من نظراته بصعوبة..

أطلقت صيحة هادرة مُخرجًا الغول الذي بداخلي، ومحاولًا وأد الارتعاشة في مهدها.. جابه الغوغاء صيحتي بتهليل رهيب اهتزَّت له ساحة الإعدام، بعدها ارتجَّ جسدي بعنف حين لمحت الوشم مرة أخرى وقد صار.. فوق ساعدي.

* * *

أحترقُ في نيران الجحيم..

أناجي زبانيته بعدما صاروا أصدقاء لي..

أختلطُ بالمذنبين من كل بقاع الأرض، لكن حتى في هذا المكان أشعر بفحيح ثعبان أسود، لعين، يُلاحقني..

وقفت مرتديًا قناعي المخيف، أحدق عبر وديان النار بحثًا عنه.. حين أعثر عليه لا شيء سيمنعني من سحقه وإسكانه جحيمي الخاص..

وحوش النار تزأر فجأة لتهز أعمدة الجحيم.. كانت هي الرعب بعينه.. وحوش هائلة الضخامة..أقدامها تسحق كل ما في طريقها.. أنيابها تنهش كل ما يمكن نهشه..

الشيطان يلوح لي من بعيد مبتسمًا.. ينتظرني في مركز الجحيم حيث بقية الرفاق المرحين.. يحلق بجناحيه مستمتعًا بحصر من استطاع جلبهم معه، ثم يغوص سعيدًا داخل بحيرة من نار السموم..

أبواب الجحيم تغلق علينا كل يوم أثناء مرور أهل الجنة من بيننا.. هناك من أخبرني يومًا أن الطريق إلى الجنة يمر من خلال الجحيم.

تواريتُ بأعجوبة عن زبانية الجحيم، حين مر أهل الجنة من أمامي.. كانوا يلقون لنا ببعض من فاكهة الجنة وهم يسيرون في صف طويل، مبتسمين.. تسللت بينهم بحذر، متوجسًا خيفة من الزبانية.. لاحظني رجل طيب، أبيض الشعر، بهي الطلعة.. أخفاني بين طرفي ثوبه، ونفخ في وجهي من طيبه.

أمام بوابة الخروج من النار انتظرنا حتى لم يتبقَّ سوانا.. الزبانية يحصرون عددنا بدقة.. تبقَّى فرد واحد سيُسمح له بالخروج.. طمأنني الرجل الطيب بأنه سيخرجني معه.. استمعتُ له بعقلي ثم كذبته.. طوحت بالرجل الطيب تحت الأرض فتلقفه الشيطان في فمه وهو يصرخ.. وقفتُ مكانه محاولًا أن أبدو هادئًا وأنا أستعدُّ للدخول..

قدماي لامستا أعتاب الجنة.. أغمضت عيني واستعددت لنسيمها.. قبل أن أشمَّ ريحها، سحبني كبير الزبانية بخطاف من نار، ثم طوحني في أعمق أعماق الجحيم..

صرختُ..

فتحت عيني مذعورًا..

استغرقت لحظات حتى أدركت أنني أعاني كابوسًا..

تنفست بصعوبة.. شعرتُ أن الهواء قد فرَّ من الغرفة.. كان نور الفجر يتسلل من فرجة صغيرة بنافذة غرفتي.. بجواري تستلقي امرأة عارية على ظهرها تفوح منها رائحة عرق، وتغطُّ في نوم عميق كالأموات لم يوقظها صراخي..

مضى يوم واحد منذ أن نفذت أمر الآلهة في الزنجي الشيطان.. ما زال صراخه يتردد في جنباتي..

الوشم صار يحتل مكانًا بارزًا فوق ساعدي.. أستطيع أن أشعر به ينتزع روحي من جذورها ويمزقها،

حملتُ بلطتي وغادرتُ كوخي الصغير القابع على أطراف المدنية..

قطعتُ الطريق بلا لحظة راحة..

دخلتُ قصر إيفرشام بحجة واهية..

وصلتُ إلى زوجة الابن التي نجت من الموت.. كانت تستحمُّ داخل حوض كبير مُثمَّن الأضلاع.. جذبتها من شعرها حتى كاد أن ينسلخ من فروة رأسها.. ألقيتها على البلاط الأسود.. تصرخ بلا مجيب وأنا أستلُّ سكيني.. جززت عنقها ذهابًا وإيابًا من الأذن إلى الأذن.. أنصت بدقة إلى حنجرتها وهي تشخب[1]. دفء دماؤها ينقذف ليغرق

---

(١) شخب اللبن: خرج من الضرع مسموعًا صوته، شخب الدم: سال وتفجَّر.

وجهي.. صارت جسدًا بلا رأس.. مزقتُ جسدها.. طوحت بقلبها في الهواء.. اختلطت دماؤها بماء الحوض فصارت حمراء قانية..

لوهلة لا أصدق ما أفعله..

فيما بعد راح كل شيء يدور من حولي كحلم شحيح التفاصيل..

يتم تكبيلي من الحرس ثم وضعي في السلاسل الغليظة، وسجني عدة أيام داخل سجن تحت الأرض..بعد ذلك يتم خياطة فمي ثم اقتيادي لساحة الإعدام..

هناك كان الغوغاء في انتظاري..

مسرح الهمجية تم نصبه من جديد..

كل من أمكنه حمل حجر رماني بلا رحمة وبتلذذ دموي..

حين وضعوني تحت المقصلة لمحت الشيطان يفتح لي بابًا أسودَ إلى الجحيم.. لم أكن أعلمُ أنه يفتقدني هكذا بشدة..

الآن لم يعد أمامي سوى انتظار الجلاد الجديد، والذي جاء يضع قناعي الأسود.. هذه المرة كان القناع مخيفًا.. مخيفًا جدًّا

الفصل الثامن عشر

لا.. لم أنتهِ..

لا شيء في هذا العالم قادر على أن ينهيني..

لم أعد أعرف من أنا أو أين أنا.. أقفُ وحيدًا فوق تلال من الحيرة والدهشة.. أنتقلُ من روح إلى روح، من جسد إلى آخر، ومن زمن قاسٍ إلى زمن أكثر قسوة.. أجيال من الظلمات.. عالم عجيب راحت تختلط فيه الوجوه والأصوات والألوان.. أُطاردُ كل ما هو من نسل إيفرشام على مدار العصور والأزمنة، أقتلهم بلا رحمة أو تفكير.. زحام لا نهائي ينظر لي وينادي عليَّ بأسماء عديدة..

ابيزيم.. فيراي.. شاتون.. خوليد.. قويس.. دكتور.. فتحي

الجميع يحترق في بوتقة واحدة، الزمن نفسه راح يحترق، أشمُّ رائحته.. بدأتُ أفيقُ من جديد على مكاني والرجل الأصهب ما زال يقبض على رأسي.. كانت تجربة مخيفة.. خوف من نوع أخر لا يمكن أن يصفه غير من زار الجحيم أو عانق الموت.

- مش معقول!

قلتها مصدومًا.. ابتسمَ بلا معنًى وقال:

- طبعًا مش معقول.. ده الجنون بعينه!

ثم يخبرني بلا اكتراث وهو يترك رأسي، أن زوجتي كانت من نسل إيفرشام..

تذكرت مَنْ قتلتهم.. سألته:

- وكل اللي اتقتلوا كانوا من نسله فعلًا؟

امتعض قائلًا:

- لا.. اللعنة بتقتل للانتقام.. لكن ده ميمنعش استغلال قوتها وتحقيق مكاسب.

ثم نظر من خلال عيني إلى الماضي مستطردًا:

- ودلوقتي تقدر تقولي لقيت اللي بتدور عليه؟ وإيه اللي كنت بدور عليه

- أنت بس اللي عارف.

وضغط على عنقي حتى كاد الهواء أن يتلاشى من صدري ثم أردف:

- قول.

تحشرجت الكلمات في حلقي.. قلت دفعة واحدة وأنا ألهثُ بمجرد أن ألفتُّ يدَه:

- العالم محتاج وحوش.

- ده اللي كنت عاوزك تفهمه.

ثم جاء بجمجمة بشرية مجوفة كالوعاء مملوءة بسائل أسود.. قرَّبه من فمي وهو مسرور:

- اتحد معايا.. وإثبت إنك تستحق الهبة اللي معاك.. اشرب.

ترددت أصداء تلك الكلمة الأخيرة في أذني عدة مرات، ثم خيم صمت طويل..

تناولت الجمجمة ورفعتها إلى فمي.. شفتاي تلامسان العظام الجافة.. أغمضت عيني.. يخبرني أن لا شيء سيوقف هذا.. حين تذوقت مرارة السائل امتلأ رأسي بطنين كطنين النحل، ثم ظهرت فجأة دوامة مظلمة ابتلعتني بلا رحمة.. من وسطها ظهرت لي أمينة كبقعة ضوء صغيرة وسط الظلام وهي تبكي.. ترجاني أن أقاومه.. ظهر الثعبان الأسود من اللامكان وقد استفحل حجمه.. انقضَّ عليها ثم راح يلتفُّ حولها ويعتصرها.. تصرخ من الألم.. تنادي عليَّ.. قدماي ثقيلتان على الأرض.. أحمل مئات الأطنان فوق ظهري.. عاجزًا تمامًا عن الحركة.. أبكي وأنا أراه يستعدُّ لبلعها.. أنا لا أستطيع فعل شيء.. لكن.. لا..لا.. ليس هذه المرة..

قفزتُ نحو الثعبان.. تحمَّلت عضته وأنيابه التي مزَّقت لحم صدري.. قبضتُ على رأسه.. اعتصرتُها بكل قوتي.. تهشمت بين أصابعي.. فحيحه اختفى للأبد، قبل أن ألقيه على الأرض ثم يتبخر في الهواء.

ابتسمت أمينة لي.. يمكنني أن أقسم أنها ابتسامة ملاك.. ابتسامة انتزعتني كالعاصفة العاتية من قاع الظلام إلى قمة النور..

فتحت عيني فجأة.. فعلت الكثير ما يستوجب صنع جحيم خاص بي، لكن الوقت الآن مناسب لفعل الشيء الصحيح..

طوحت بالجمجمة بعيدًا.. تراجع الراهب إلى الوراء مصعوقًا.. تلاشى السرور الذي كان في عينه..

الوشم يستطيل حول عنقي وثعبانه ينفث سُمَّه في الهواء.

- أنت مجرد شخص عادي.

قلتُها ثم نهضتُ..

حطمتُ القُيود الخفية إلى كانت تكبلني.. زمجرتُ في وجهه.. اتسعت عيناه وكاد أن يسقط أرضًا.. أرى الخوف فيهما لأول مرة..

تقدَّمتُ نحوه..

صار يتراجع حتى اصطدم بعرشه قبل أن يتهاوى فوقه.. قال مذعورًا وهو يرى الموت بين يدي:

- إزاي؟

- زي (ابزيم) لما طوع الوشم لإرادته.

ورفعت ساعدي أنظر للوشم كصديق عزيز.. أكملت:

- أنا كمان طوعته.

ثم سحبته من رأسه.. حاول أن يخدشني بأظفاره.. أمسكت يده وكسرتها..

صرخ متوسلًا الرحمة.. كسرت يده الثانية..

أزحت الجثة الموضوعة فوق المذبح ووضعته بدلًا منها..

أحكمت قيوده جيدا:

- كان لازم تعرف إنك المفروض متديش لشخص معندوش حاجه يخسرها سبب للانتقام

ثم قمت بقلبه على بطنه.. كشفت ظهره قبل أن أتحسس جلده معدوم اللون بخنجري:

- من فوائد الرحلة العظيمة اللي شفتها إني اكتشفت طريقة جميلة للتعذيب.

- الرحمة.

استرجعت كلمة ابيزيم:

- تقدر تطلبها من مراتي وبنتي.

قلتها وأنا أشق ظهره، لتبرز أمام عيني الجائعتين للانتقام عظام ضلوعه.

* * *

عندما انتهيت منه مسحت الدماء التي لوثت وجهي بجزء من طرف قميصي..

شعرت لأول مره بألم في ذراعي اليسرى وبارتجافة شديدة في قدمي جعلتني أجلس على الأرض أبتلع أنفاسي.. الدماء تنزف من ذراعي بغزارة.. متى حدث ذلك.. لا بد أنني جرحت نفسي دون أن أشعر.. أتساءل: كيف كنت بمثل هذا الغباء؟ أو لعلني كنت أصبُّ كامل تركيزي على إذاقة هذا اللعين أقصى درجات العذاب..

ضمدتُ جرحي وأنا أنظر إلى سقف القاعة المقوس والمصنوع من الخشب والتي منذ أن دخلتها ألاحظ ارتفاعها الشاهق..

خرجتُ من أفكاري حين استطعت أن ألمح لأول مرة مدخل ينتهي بسلم صغير يقود إلى مكان ما في الأسفل..

شيء ما يدفعني لان أغادر.. وأشياء تصرخ علي بأن أبقى وأهبط تلك السلالم.. حسنًا.. سأتأكد فقط أن الأمور قد انتهت للأبد..

تحركتُ نحو المدخل دون أن أنسى إلقاء نظرة على الرتين اللتين انتزعتهما ووضعتهما فوق المذبح فبدوتا كجناحي نسر دموي..

كانت السلام تهبط في دوامة تزداد ضيقًا كلما نزلت إلى حيث يسود الظلام الدامس قبل أن أسير في ممر ضيق قادني إلى قبو واسع بحجم الفيلا من الأسفل..

كان القبو هادئًا كالقبر، أرضيته طينية لزجة تزحف فوقها القذارة، وفي منتصفها شاهدت شيئًا غريبًا..

شاهدت بئرًا قديمة، جوانبها الحجرية متآكلة، ويعلوها خضار العفونة.. تنيره مشاعل قديمة مثل التي كان يتم استخدامها في العصور الوسطى.. في ضوئها الخافت، شعرت أنني أسير داخل غابة استوائية، بسبب الأعمدة الخشبية التي بدت أشبه بأشجار عملاقه، تدعم قواعد القصر من الأسفل..

هناك أيضًا شفاط حديدي ضخام تآكلت مراوحه وأصابه الموت.. نظرت بين مراوح الشفاط.. رأيت ممر تهوية طويلًا تختفي نهايته في الظلام.

هناك أيضًا باب..

باب وحيد أسود يمتصُّ كل الألوان من حوله، إطاره عليه نقش غريب.. حدقت في النقش مطولًا..

في تلك اللحظة خطرت لي صورة قديمة منسية..

لم يكن هذا نقشًا عاديًّا بل كتابة كهنوتية قديمة عُرفت بالهيراطيقية.

صوت يرن داخل روحي:

- اهرب.. اهرب.

أدرت مقبض الباب النحاسي بحذر.. برودته الغريبة سرت في جسدي كالكهرباء، سمعت بعد ذلك صوت تكة مزعجة كفيلة بتنبيه الموجودين..

أخرجت مسدسي ذا الساقية الدوارة.. سلاح فتاك منحتني برودة فوهته الجرأة اللازمة للدخول.

أراها الآن..

عجوز نائمة على كرسي متحرك قديم ومتهالك.. لا أعلم من هي.. لكن في رأيي لا بد من أنها شريكة في كل ما حدث بطريقة أو أخرى.. وتستحق القتل،

تحركت بهدوء خشية إزعاجها، من الأفضل ألا تراني حتى تغادر الحياة بأقل ضوضاء ممكنة.. لوهلة كانت تبدو ميتة بالنسبة لي.. صدرها لا يتحرك قيد أنملة.. متخشبة تماما مثل جثة منسية..

تناولت مطرقة حديدية ضخمة كانت موضوعة بجانب الباب لتحول دون إغلاقه..

كانت ثقيلة في يدي..

سوف أحطم بها رأس تلك العجوز بضربة واحدة..

رفعتُ المطرقة استعدادًا للضربة القاتلة، والشك لدي يرتفع بأنها قد فارقت الحياة منذ فترة..

هويت بالمطرقة على أم رأسها..

تهشمت..

المطرقة.

صرخت وأنا أمسك برسغي محاولًا احتواء ألم شديد..

تراجعت بظهري إلى الوراء، بينما نهضت العجوز من مقعدها ببطء وثبات، وهي تزوم غاضبة، تنظر لي بعيني بيضاوين مائعتين تدوران بلا توقف، حين لمحت وشمًا يلتفُّ حول ساعدها الأيسر..

وشم ثعبان أسود.. مخيف.

* * *

الفصل التاسع عشر

راحت تتمتم ببعض العبارات بلغة لم أفهمها.. أي لغة تتحدثين بها أيتها الشيطانة؟!

أخرجت مسدسي وأنا أتجنب مخالب يدها التي تحاول نهشي.. سأفجرها إلى نصفين..

ضغطت الزناد بلا توقف.. الرصاصات تتحرر من مخزنها دفعة واحدة لتسكن جسدها إلى الأبد، فتقذفها بعيدًا عني دون أن تصرخ.. تصطدم بالحائط وتهوي بلا حراك.. لا دماء تسيل منها..

ثوانٍ ثم تحركت..

عادت تنتصب وقد استحال وجهها إلى قطعة بشعة مخيفة..

استغلت دهشتي ثم لطمتني بيدها.. شعرت أنني انتُزعت من على الأرض بفعل إعصار.. العالم يدور من حولي بلا توقف وأنا أطير في الهواء.. ثوانٍ توقف الزمن وتوقف كل شيء من حولي..عاد الزمن

يتحرك لأصطدم بالسقف في عنف شديد، ثم هويت فوق الأرض وقد تهشمت بعض ضلوعي..

بصقت الدماء من فمي برفقة بعض أسناني، فيما راحت العجوز تدنو مني وهي تضحك ضحكات مليئة بشهوة القاتل المتعطش للدماء..

وقفتُ في مواجهتها..

استندت بظهري على الحائط لكيلا أسقط.. كانت أبسط حركة تسبب لي وخزات من الألم الذي لا يُحتمل..

سحبت سكيني المصنوع على هيئة حرف T.

سأقاتل به..

طرقعت عنقها يمينًا ويسارًا وبدت على شفتيها الجافتين شبح ابتسامة ماتت في ثوانٍ حين أدرت السكين في وجهها..

الوشم يدور حول ساعدي ويرتفع حتى يصل إلى عنقي.. فيض من الطاقة والقوة أمدني بها.. إن مت يموت هو.. فكما هو فرصتي الوحيدة فأنا فرصته الأخيرة..

أغمدت السكين في رقبتها.. لم يبدُ عليها أنه أثَّر فيها.. أدرته داخل عنقها ثم سحبته حتى أسمح بدخول الهواء.. تدفَّق الدم فورًا بكميات هائلة ارتطم بعضٌ منه بوجهي.. توقفت الدماء فجأة قبل أن يندمل

مكان الجرح بسرعة.. راقبتها بفم مفتوح.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا

أمسكت برأسي وضربته بالحائط كحبة جوز هند.. ارتجَّ عقلي داخل جمجمتي.. سقطتُ على ركبتي وأنا ما زلتُ أحدق فيها.. سقطت مني السكين وهوت يدي إلى جانبي.. تدور من حولي ببطء.. تمارس معي لعبة القط والفأر.. أخيرًا فقد جسدي تماسكه وسقطت.. على وجهي.

* * *

تمالكت نفسي بسرعة وألقيتُ نفسي بعيدًا عنها..

جريتُ وجرت خلفي تحاول إمساكي.. مع كل خطوة كنت أتوقع الإحساس بمخالبها وهي تقبض على كتفي..

لم يحدث ذلك..

عبرت الباب وأغلقته ورائي وأنا ألهثُ بصعوبة..

أسندته بعمود خشبي حتى أمنعها من العبور..

أسمعها تصرخ بغضب وهي تحاول تحطيم الباب الذي راح يرتج تحت وطأة ضرباتها قبل أن تتوقف فجأة.. جزء من عقلي اندهش..بقيته جعلني أهرع نحو السلالم..

وصلتُ إلى أذني جلبة جديدة.. توقفت على أول درجة من السلالم وأنا أصغي.. نداء ملهوف باسمي يأتيني يأسًا بلا انقطاع..

عدتُ وسط القبو محاولًا تمييز صاحب الصوت.. طرقات متقطعة أوصلتني إلى البئر.. لم أكن أعتقد أن بداخله أحدًا.. توقفتُ أمامها.. سكون عجيب غمر القبو فجأة لا يقطعه سوى صفير مجهول المصدر..

فكرت أن أهرب..

قررت أن أهرب..

لكني في النهاية اخترت أن أساعد أيًّا مَن كان فيها..

انحنيت فوق البئر..

شحذت بصري داخلها مُحاولًا اختراق ظلمة مياهها.. تبدو هادئة يلفُّها غموض مخيف.. قبضتان من حديد تتعلقان في عنقي فجأة، مع بزوغ وجه فتاة مذعورة، من وسط مياه البئر.. حاولت أن دفعها عن نفسي حتى لا تأخذني معها إلى الأسفل حيث المجهول المتوحش.. الموقف المخيف أنساني أنها عارية تماما، وأنها تمتلك جسد آلهة من جبال الأوليمب وتملك اسمًا فرعونيًّا.. أماليا

كانت كل أوصاف الخوف والهلع لا تفي بما رأيته على وجه تويا في تلك اللحظة وهي تحاول التشبث بي..

أحكمتُ قبضتي حولها من تحت منكبيها وأنا أحاول إخراجها.. لا وقت للسؤال أو الاندهاش.. سمعتُ انكسار صفحة مياه البئر، وبأشياء تزحف فوق جدرانها من الداخل..تصرخ اماليا وتطلب إليَّ أن

أسرع.. تخدش وجهي وصدري بأظفارها وهي تحاول التشبُّث بي.. حركتها المتوترة المرتعشة كادت أن تفلتها مني.. جذبتُها للأعلى بأقصى قوتي.. وكأنها ألقت خلفها مرساة ثقلية انسلت من بين يدي بغتة داخل البئر، بينما سقطتُ على ظهري نتيجةً لرد الفعل..

مات صراخها فجأة..

قفزت من سقطتي نحو حافة البئر.. أمام عيني غير المصدقة رأيتها تطفو بين ثلاثة رجال عراة، شاحبي الوجوه، أعينهم حمراء تلمع كجمرات من نار متأججة.. راحوا يدورون حول أماليا في الماء كوحوش مفترسة تتحيَّن الفرصة لتنقض على فريستها..

رفعت وجهها نحوي.. سالت دمعة أخيرة منها.. (اهرب).. قالتها، فكانت كإشارة البدء..

انقض عليها الثلاثة.. انتزع أحدهم رأسها بقسوة كجرَّافة تقتلع شجرة من جذورها وهو يعوي كالذئب.. مزق الاثنان جسدها بينهم ثم راحوا يلتهمونها بشراهة..

شعرت بالغثيان الشديد..

أخرجتُ كل ما في معدتي فوق الأرض.. دقائق وعادت المياه إلى صفائها وهي تحوي بداخلها شرًّا..

شرًّا مُحدِقًا.

* * *

الباب المغلق يتحطم بدويٍّ مزعج، وخلفه ظهرت العجوز، راسمة ابتسامه أخرى مخيفة، ولسان حالها يخاطبني: لقد عدت.

يجب أن أعترف.. خطايا العصور تُلاحقني الآن على هيئة شيطانه عجوز.. مجرد ثمن وعدتُ أن أدفعه وهأنا الآن أدفعه مضافًا إليه الفوائد والأرباح المحرمة..

حاولتُ الهرب لكنها كانت أسرع مني.. قبضتْ على ذراعي، ثم رفعتني في الهواء عاليًا، قبل أن تطرحني أرضًا بقسوة جعلت رأسي يدور ألف دورة ودورة..

حاولت أن أقاوم ألمي وأنهض، لكن جسدي لم يستجب لي هذه المرة.. أصبحت عاجزًا كطفلٍ رضيعٍ..

انحنت نحوي وظلت بأنفها كمن ترغب في استنشاق زهرة.. تتحسس رأسي بمخالبها، تدرس أبعاده وزواياه، تنتف شعيرات ذقني بتلذُّذٍ، ثم تغمس مخالبها بداخل صدري، وتنتزع قطعة لحم منه.. لم تعبأ بصراخي وأنا أراها تلوك لحمي بين أسنانها بتلذذ..

أي نوع من الوحوش تكون هذه العجوز؟!

تجرني من قدمي بلا رحمة نحو البئر، وهي تطلق صيحاتها المخيفة، الشبيهة بنعيق الغربان..

أحاول التشبث بأي شيء تلمسه أصابعي..

دمائي ترسم من خلفي طريقًا أحمر دمويًّا متعرجًا..

لم يعد يمكنني التمييز جيدًا..

غيمة سوداء مظلمة قد تكون الأخيرة تحيط بعقلي..

ألتقط أنفاسي.. لا بد من إعطاء الفرصة لقلبي لكي يهدأ.. لكنه لن يهدأ.. وصلت إلى مرحلة فقدان السيطرة على كل شيء..

أشعر أن العالم يتمايَلُ من تحتي ثم..

فقدت وعيي.

* * *

فكرتُ أنني متُّ.. غير أن إغماءتي لم تكن كاملة، فقط أحسست أن العالم أصبح رماديًّا من حولي، وأن الأشكال والأصوات صارت مهزوزة..

أعادني صراخ العجوز إلى وعيي.. شممت رائحة لحم بشري يحترق..

أدركت أنها رائحتي حين رأيتُ أحد المشاعل، وقد سقط فوق قدمي، وراحت نيرانه الجائعة تلتهم ما في طريقها..

كنتُ مُلقًى على الأرض وأمامي العجوز تعطيني ظهرها، تصرخ بغضب، وهي تزيح مَنْ يحاول الخروج من البئر، لتفسح مجالًا لإلقائي ..

تمالكتُ نفسي حتى لا ألفتَ انتباه العجوز أنني استعدتُ وعيي..

أزحت قدمي بهدوء بعيدًا عن الشعلة.. استدارت العجوز فجأة نحوي.. تصنّعت الإغماء.. زامت لثوانٍ.. أُتابعها بعين نصف مفتوحة.. رمتني بنظرات شَكٍّ حادة.. اتجهتْ نحوي.. نبضات قلبي باتت كرصاصات تنطلق من فوهة مدفع رشاش في معركة حربية..

ابتلعتُ ريقي وأنا استعدُّ للمعركة القادمة..

قبل أن تصل لي غيَّرت اتجاهها وذهبت نحو غرفتها مسرعة، ثم عادت بكرباج مصنوع من ذيل سمكة شيطان البحر (حداية).. كان الكرباج طويلًا يوجد في ثلثه الأخير شوكة غضروفية.. انقضت على مَنْ يحاول الخروج من البئر وأوجعتهم ضربًا بالسوط.. ضرباته كانت تقطع اللحم وتبتر الأطراف بلا رحمة..

انتهزتُ فرصة انشغالها وأخرجت خنجري الثاني..

عندما انتهت ألقت السوط جانبًا، ثم اتجهت نحوي.. مدت يدها تسحبني من قدمي.. باغتها وأغمدتُ السكين حتى مقبضه في رأسها.

- موتي.

تحررتُ من مسكتها..

أخرجتُ مسدسي الذي أُخفيه داخل جواربي..

أصوِّبُ بحذر هذه المرة وأنا أنظر إلى عين الشيطانة، بينما هي تحاول سحب السكين من رأسها..

ضغطتُ الزناد وحررت جميع رصاصاته لتستقر داخل رأسها.. صراخها المذعور يملأ المكان وهي ترتدُّ للخلف بفعل الرصاص.. لطالما رحبتُ بهذا الصوت.. رائحة دمائها نتنة.. تتناثر في كل الأرجاء.. لكن الشيطانة نفسها سقطت على الأرض أخيرًا..

دمائي تنزف..

الوقت يمر..

أزيز يعبر أذني ودوامة سوداء أخرى تضرب عقلي..

سأفقد الوعي..

هذه هي النهاية..

لا.. سأقاوم.. سأبقى واعيًا..

الدخان المتصاعد من ماسورة المسدس أستنشقه صانعًا منه سيجارة تلهب خلايا رأسي..

اتجهت نحو السلالم مترنحًا وأنا لا أرى جيدًا..

صراخها يصمُّ أذنيَّ مِن جديد حين نهضتُ..

لم أستطع مواجهتها هذه المرة..

انقضت عليَّ بكل قوتها..

كبلتها بذراعي في نضال أخير..

تطوحنا معًا بلا هدف..

ارتطمنا بحافة البئر..

قدماي تتعثران..

حاولت جاهدًا ألا أسقط..

أمسكت ماسورة حديدية نبتت من الفراغ.. تلاشت بين أصابعي.. كانت سرابًا.. وفيما كنتُ أحدِّقُ في أصابعي التي أمسكت الفراغ كنت أسقط داخل البئر وفي انتظاري يكمن خطر.. جديد.

* * *

الفصل العشرون

أجزاء من الثانية هي الوقت الحقيقي الذي قضيته في الفراغ قبل أن أرتطم بالماء.. بالنسبة لي شعرت بنفسي أهوي ببطء رصاصة في فيلم ماتريكس قبل أن أغوص عميقًا داخل المياه..

كانت المياه باردة جدًّا، أنستني قليلًا الإحساس بالألم.. لوقت فقدت الإحساس بالاتجاهات.. اختلت بوصلتي الطبيعية.. لم أعد أدرى أين السطح وأين العمق؟ حركت ذراعي وقدمي عشوائيًّا.. مخزون الهواء ينتهي في صدري.. لم أجد السباحة أو الغوص يومًا.. قاتلت لسنوات وسنوات تحت الماء.. ارتطم وجهي بسطح الماء.. شهقت بقوة وأنا أبتلع كل الهواء الذي وجدته..

تلفتُّ من حولي في جزع..

كل شيء كان صامتًا لا تعكره سوى ضرباتي..

تحسست حواف البئر.. كانت تغطيه طحالب سوداء لزجة..

فجأة راحت المياه تفور من حولي.. أوشك فورانها أن يبتلعني داخله..

رأيت جثة العجوز تطفو على السطح وقد تخشبت تمامًا.. من وسط فقاقيع الماء ظهر أصحاب الوجوه الشاحبة من جديد.. لأول مرة أمكنني مشاهدة أنيابهم.. يتحسسون الجثة بحذر ورهبة.. يتبادلون نظرات عدم التصديق فيما بينهم.. لم يبدُ عليهم الانتباه لوجودي أو لعلهم تناسوني بإرادتهم.. لمس أحدهم وجه العجوز بخوف.. اطمأنوا حين لم تخرج منها استجابة.. انقضوا عليها كالوحوش يتخطفونها فيما بينهم في لهفة وجوع وانتقام.. دقائق وكانت بقاياها قد توزعت بين أيديهم وأسنانهم، التي لم تتوقف عن الطحن والقطع..

التفتَ نحوي أحد الثلاثة..

اتسعت عيناه الخاليتان من الحاجبين كأنه مندهش من وجودي..

اقترب مني بهدوء شديد وهو ما يزال يلوك قطعة لحم بين أسنانه..

تحسَّسَ وجهي برفق وهو يدور في الماء من حولي..

ملامحه لا تعكس أي رد فعل أو إحساس.. فقط هنا برودة الموت أشعر بها يجرها معه..

وضع كلتا يديه فوق كتفي بهدوء..

استسلمت ليده التي رحت تدفعني نحو الأسفل.. ارتياح غريب يتملكني، وشعور بالاسترخاء لا أدري حقيقته..

تجاوزتُ كل ذلك وانتفضتُ في الماء..

تخلصتُ من يده وصعدتُ مرة أخرى للسطح..

حاول أن يقضم عنقي وهو يعوي كالذئب..

قبضتُ على رأسه وبآخر ما لدي من قوة هشمتها على الجدار الحجري.. الاثنان الآخران يتركان ما بين أسنانها ويتجهان نحوي في هجوم هو الأخير.. لم أنتظر لأنه في الأصل لا يوجد لدي وقت للانتظار..

تسلقت البئر مستعينا بحوافٌ أحجاره والمسافات المتباعدة بينها كنقاط ارتكاز وضعت عليها قدمي..

شعرت بأظفارهم تخدش قدمي قبل أن أصل للأعلى وألقي نفسي على الأرض..

حاولتُ النهوض..

ابتلعني دخانٌ هائل..

النيران من حولي تملأ المكان.. كان المشعل الذي سقط استحال إلى تِنينٍ ناريٌ لا يشبع، يلتهم كل ما في طريقه..

الأعمدة الخشبية تتساقط واحدًا تلو الآخر..

المكان صار حفرة من الجحيم..

تمالكتُ نفسي وبآخر طاقتي هرعتُ نحو السلالم..

اهتزَّ المكان ثـم دوى مـا يـشبه الانفجـار، وتـساقطت أجـزاء مـن السقف..

تفاديتُ الحطام المتساقط بصعوبة، وبحسن حظ..

أمامي المخرج، أنهيتُ حظـي كلـه.. سـقط أمـامي مبـاشرة عمـود ضخم أغلق المدخل وجعلني حبيسًا..

مسألة خروجي صارت معضلة ليس لها حلٌّ..

تلفتُّ مِن حولي بلا أمل..

كافحتُ متفاديًا الحُطام حتى وصلتُ إلى ركن لم تـصله النـار بعـد، من خلاله رحت أتابع كل شيء وهـو يتـداعى مـن حـولي أثنـاء طريقـه السريع إلى الجحيم..

كانت الدقائق المتبقية حتى وصول النار لي يمكن عَدُّها على أصـابع اليد الواحدة.. لذا أغمضتُ عيني وانتظرتُ قُدومَ الموت.

الفصل الأخير

بعد ذلك..

الدخان يدخل صدري.. خدر غريب كدبيب النمل يغزو أطـرافي، ربما لو كنت متفـائلًا لاعتقـدتُ أنني سأموت مختنقًا قبـل أن أمـوت محترقًا..

متى سيأتي الملكان ليسألاني؟! الشيطان ينتظرني في مركز الجحيم.. لقد سئمتُ الانتظار.. أريد أن أستريح وأن ينتهي كل ذلك الآن..

الملكان ظلهما يتجسد فجأة من وسط النيران.. لا يعبآن بلهيب النار ولا يتأثران بها.. ليسا بالضخامة التي كنت أتوقعها.. أتمنى أيضًا ألا يكونا بالبشاعة التي أستحقها.. أعلم أن الأشرار تنقلهم ملائكة العذاب.. ربما هذا ما أستحقه على ما اقترفتُ من آثام..

دعوت الله أن يرحمني، وتمنيت أن تكون تلك هي ملائكة الرحمة..

يقتربان مني بسلام على غير ما توقعت.. يلمس إحداهما وجنتي وقد شاهت عيناي تمامًا، حين استطعت تمييز الصوت:

- بابا.. أنت لسه قاعد ليه؟

أمينة وبجوارها نادية وقد بدت هالة من النور حولها في حين راح الضياء يشعُّ منها.. لامستها بيد مرتجفة:

- أنا مصاب بشدة يا حبيبتي.. مش قادر أتنفس.

- لا يا بابا متستسلمش وتسيب النار تحرقنا.

- النار متحرقش ملاك زيك.. لكن ممكن تحرقني أنا.

- لكن إحنا عاوزينك تعيش.

قالتها نادية بحب، وهي تمسح الدماء التي راحت تتدفق من جانب فمي.. ترقرقت الدموع في عيني:

- وأنا مش عايز أخسركم مرة تانية.. عاوز أبقى معاكم علطول.

أجابتني:

- عارفة.. لكن لازم تقوم..صدقني طول ما أنت عايش إحنا نفضل عايشين جواك.

ثم مررت يدي فوق شعرها، فابتسمت أجمل ابتسامة.. قلتُ بصوت واهن محدثًا أمينة:

- أنا أسف إني مكنتش الأب اللي تستحقيه.

ابتسمت:

- إنت بالنسبة لي أحسن أب في العالم.

لامست وجنتيها:

- إنتي كنت سالتيني قبل كدا إيه أحسن حاجة حصلت في حياتي.. عارفة إيه؟

سألتني:

- إيه يا بابا؟

تهدج صوتي:

- إنتي.. إنتي أحسن شيء حصل ليا.

قبلتني على رأسي برقة.. تلاشت تدريجيًا كالبخار من بين يدي.. ودعتُها:

- مع السلامة.

- مع السلامة يا حبيبي.

نهضتُ بصعوبة مُستجمعًا ما بقي من قواي.. ترنحتُ لثوانٍ.. سأقاتل لأجل حياتي.. لدى الحافز أخيرًا..

تذكرت الشفاط الضخم..

استعنتُ بذاكرتي، وسرتُ وسط الدخان حتى وصلت إليه.. انتزعته من مكانه، ثم دخلتُ داخل ممر التهوية الذي يتسع لعبوري

بالكاد.. ربما تكون نهايته مغلقة وربما تكون مفتوحة.. في كل الأحوال سأخوضه حتى النهاية.. سعلتُ فجأة بشدة.. السعال مؤلم.. دماء داكنة أبصقها من فمي.. لا يهمُّ الآن.. لن اتراجع..

رحت أزحفُ عبر الممر..

الظلام لا نهاية له.. الممر يضيق حول جسدي.. ألمح بقعة صغيرة من ضوء تقترب.. أنفاسي تضيع.. روحي ربما تتبعها بعد قليل.. الرؤية أمام عيني تخفُتُ تدريجيًا و... وتخفت.

* * *

خاتمة

استمتعت بالصوت الجميل لأمواج الصباح عندما راحت تتكسر على صخور الشاطئ فيما كانت الشمس تشعُّ بالدفء، وأنا ألقي بصنارتي في الماء منتظرًا الصيد..

سارة تهمس في أذني وهي تستند برأسها على كتفي بينما الهواء يداعب شعرها:

- اصطدت حاجة؟

قَبَّلتُها على وجنتها التي توردت، وقد لفحت الشمس بشرتها، وأكسبتها الأيام والسعادة بعض الوزن الزائد:

- الصبر.. الصياد الشاطر لازم يكون صبور.. Trust me

قلتها بطريقة (أرنولد شوارزنيجر) في فليم (Terminator)

ابتسمت ابتسامة عريضة وهي تلثم فمي بقبلة:

- يا خوفي!

- بتقولي حاجة؟

-لا يا Baby.. استمر.

لم أجبها..

انساب الصمتُ بيننا..

مرت ساعة كاملة..

سارة استسلمت للنوم..

ليتني لم أتخلَّ عن مسدسي، كنتُ سأفجر كل تلك الأسماك الملونة التي تسبح الآن.

- سارة.

- نعم.

قالتها في ملل دون أن تفتح عينيها

- إنتي واثقة فيا؟

- أه.

أكملتُ بغيظ:

- ومصممة تاكلي سمك؟

أومأت برأسها:

- بوري مشوي.

عندئذ تنهدتُ مُستسلمًا:

- في مطعم سمك حلو قوي على أول الطريق.. يلا بينا.

- تعجبني.

تمت

محمود الجعيدي



نحو الممر المظلم كانت قدماي ترتجفان.. فتحت الباب بحرص كي أتأكد من ألا يراني أحد.. برودة الليلة والوقت الميت جعلا المنطقة كالمقابر.. إثناء خروجي اصطدمت بكل ما في طريقي.. ألقيت بنفسي داخل السيارة لتغوص بي وسط حواري وأزقه معتمة.. متاهة بلا أول أو آخر، تحوى داخلها أشباح ممسوخة، وشياطين ضائعة تبحث عن رفيق.

- محمود الجعيدي، كاتب من مواليد محافظة الدقهلية ١٩٧٧، عضو فريق القلم الحر للنشر الأدبي، فازت روايته الأولى (لمسة الشر) في مسابقة التكية الأدبية.. شارك في فقرة الرعب الخاصة بالبرنامج الإذاعي الشهير (ع القهوة) إذاعة (نجوم اف إم) بمجموعة قصص نالت استحسان محبي دراما الرعب، ومنها (الجلد الملون، دائرة الفزع، الزوجة العائدة، الوردة السوداء، الوليمة الأخيرة)

